

أدولف لبنيامين كونستان

بمقام

الأستاذ أحمد رشاد

رجل غير واقعي

(Mme de Charrière) التي اعتاد استشارتها في أموره بقوله : « رغم إفهامهن أنني لا أكن لهن إلا الصداقة ، كن يطلبن مني الزواج مبديات استعدادهن للتضحية من أجل حتى بشرفهن وبكل ما يملكن . . . » . وفي الواقع ، كان بنيامين يميل إلى الترويح الذهني أكثر من ميله إلى لذة الشهوة الجسدية . وإن صادف وهزته هذه الشهوة ، جعل استمتاعه بها مع بنات الهوى . كان كل همه التفتن في المغازلة التي يسميها مونتسكيو « بالحب الكاذب » .

إن تشاؤمه ، ورخاوته ، وتردده ، وسرعة غضبه ، وخوفه من المسؤولية وقلقه المستمر من الخديعة ، شحنت حياته بالمضايقات والمتاعب والفشل ، وجعلت منه « رجلاً غير واقعي » على حد تعبيره .

إن هذا الكاتب - السويسري المولد ، الفرنسي الثقافة ، الإنجليزى النزعة - ليس إلا مجموعة من المتناقضات . وهو يعترف بأنه لم يذق طعم الحنان في صباه - وهي الحقيقة - ولكنه بمجرد أن يشعر بالشفقة عليه من أحد ، يسخر منه ويهزأ به . وبينما يصرح بأنه يكره الحياة ويحتقرها ، يتهمها بأنها لم تجلب إليه الرفعة المنشودة ، ولا علو الصيت المرتقب . وأنه إن دافع عن

يحمل بنا في مقدمة هذه الدراسة ، قبل أن نرفع الكلفة بيننا وبين بنيامين كونستان (Benjamin Constant) القول بأن هذا الرجل الذي كان يفتخر بخبرته في فنون الغرام ، وأنه اتخذ الهيام هادياً ورسولاً ، لا يجد في نظرنا مكاناً له بين كبار الأحبة ولا مجلساً له مع أهل الهوى .

لا نريد اتهامه باتخاذ ربات الحجال سبيلاً للتسلية ، وإنما نطنه يعتبر النساء - على الأقل اللاتي عاشرهن - زميلات مرفهات أو صديقات في وسعهن منافسته في ذكائه . كان حبه لهن يلبس ثوب الصداقة أكثر من رداء الشهوة ، وكان يميل إلى رؤية نفسه محبوباً أكثر منه كونه محباً ، ليكون دائماً في مأمن من حرارة الحب أو الإطالة في عمره .

وسنراه في الثلاثين من عمره وسط صديقات تحاول كل واحدة منهن أسره بسحرها وإلحاحها ، لتجعل منه شريك حياتها ، ناسية أنه حريص كل الحرص على التمتع بحريته « وأن إلحاح النساء عليه في مجال الغرام جعله يفتح مدام دي شارير

له ، بفضل طول الصبر والثبات . ويعلق كونستان
معتزلاً بدوره : « إن منظر تلك السعادة جعلني أندم
على عدم بحثي عن مثلها ، فلم أكن بعد قد اتصلت
بامرأة استطاعت بحبا لي ارضاء كبريائي . . . وأمام
اضطراب شعوري ، قلت لنفسى : إلا من حبيبة
تعشقى ؟ » .

هل سمعته أيها القارئ العزيز ؟ إن كل ما يصبو
إليه ، وكل ما ينشده ، لا أن يحب ولكن أن يرى نفسه
محبوباً ! إن المسكين قد فاته أن حبنا لا ينمو ولا يثبت
إلا عندما ننسى حبنا الذاتي !

ولنستأنف كلامنا عنه باستشهادات مستقاة من
قصته ، إذ يقول : « في اللحظة التي كان قلبي فيها
منفتحاً للحب ، وطموحي تواقاً إلى النجاح ، وقع
نظري لحظة على اللينور (Ellénore) فخلتها خير
فريسة لي » . أهذا هو كلام المحب الصادق أم الرجل
النهاز للفرص الذي لا يهتم إلا إشباع هوايته بايقاع
أكبر عدد من النساء في حباله ولا يرغب إلا في اذلال
المرأة باسم الحب ؟ ولكن هناك ما هو أسوأ ! إنه كثيراً
ما يخلط بين الحنان العميق الصادق وبين عاطفة طارئة
لمزاج متقلب ، إذ يقول : « إن أية عقبة تقف في سبيل
حياتي كانت تؤرقني . والحب الكاذب الذي كنت
أبديه منذ حين ، كان يخيل إلى أنني أشعر بلهيبه في
أحشائي » . والأمر الذي يحيرنا في استجلاء شخصية
هذا الرجل الذي اتخذ اللعب بالقلوب هواية ، هو قوله
في قصة « أدولف » : « الويل للرجل الذي لا يعتقد في
أبدية رابطة الحب » . ثم هو يقول مستأنفاً الكلام عن
مغامراته مع اللينور : « وكنت أشعر بأن رابطة حبنا
لا يمكن أن تدوم » .

وإذا عارضنا أحد في هذا الحكم متعللاً بأن هذا
الشعور إنما ينطبق على أدولف بطل الرواية ، لا على
بنيامين ، فارجوه الاطلاع على المذكرات الخاصة التي

قضية عادلة ، فسرعان ما ينفد صبره ويعلل ذلك
بقوله : « إن الكفاح يتعبني ، وكل ما أريده هو
الراحة » . وأنه إن تفاني في مساعدة إخوانه ، فمن باب
المحاولة لا الحب . وأنه إن افتخر بحريته الشخصية ،
نجدّه أسير النساء ، أسير الميسر وضحية التقلبات
السياسية . وأنه إن أكد بأن العقيدة لم تجد سبيلاً إلى قلبه
وأكب على تأليف المجلدات ضد الأديان ، نراه
يعترف للدوق دى بروي (Duc de Broglie) قائلاً :
« لقد جمعت حوالى أربعة آلاف حادثة تعزز رسالتي
ضد الأديان ، لكنني بعد تفكير عميق ، استبعدتها لعدم
جدواها . وأنه إن تاق إلى رؤية اسمه يلمع بين أهل
عصره ، وأفكاره تملأ صدورهم ، نراه يعترف وهو
في سن السابعة والثلاثين قائلاً : « لقد ضقت ذرعاً
بالعالم وأهله حتى فقدت الأمل في أن يستظرفني أحد ،
فيا ليتني مت قبل هذا ! » وأنه إن انتظر طويلاً للثور
على زوجة شابة جميلة لطيفة كفيلة بضمان حياة رتيبة
له ، نجدّه يتزوج لأول مرة بامرأة دميعة لا يحبها
ولا تحفظه بالغيب . ثم يتعلق بصديقة قدمه ، يتركها
مدة ، ليتزوجها بعد خمسة عشر عاماً . وأنه كان يمثل
عدم الاستقرار ، ولكنه بدل الاعتراف بذلك ، يحاول
التخلص من هذا العيب ليقع في أعمال صبيانية ومهاترات
تافهة .

ولكي نعطي صورة واضحة لحكمنا هذا عليه ،
فلا يسعنا إلا أن نتركه يتكلم عن نفسه . إنه يقول في
مذكراته : « إن ذكرى عشرين عاماً من حياتي قد
ضاعت وأصبحت ملكاً لمن استحوذ عليها دوني ، الأمر
الذي سيجعلني أحتقر نفسي وسيثبط من همتي إلى اليوم
الذي تغلب فيه عزمي على تردددي » . ولكننا سنرى أن
هذا التردد المزدول الذي يسميه « بعذاب الحياة الأكبر »
سيلازمه طيلة حياته دون استطاعته التخلص منه .

ونراه في كتابه « أدولف » (Adolphe) يقص
علينا اعترافات أحد أصدقائه نجح في الفوز بحب امرأة

كتبها المؤلف والتي يقول فيها بالحرف في سنة ١٨٠٧ :
« سأبدأ بكتابة قصة هي في الواقع تاريخ حياتي » .

ولا نريد أن يعتقد القارئ أننا سنلازم هذه القسوة
في الحكم على عواطف وتصرفات بنيامين كونستان ،
الرجل ذي القلب الرحيم الذي ذبل قبل الأوان ،
وصاحب القريحة الوقادة ، والمثلل السريع ، بل إننا
نطمئن القارئ بأن الرجل يستحق أن نبعد عنه كل
ما من شأنه أن يقلل من مكانته ، لأنه في الحقيقة ، رغم
ما فيه من تباين في الصفات والأخلاق ، يعتبر كاتباً
ماهرًا يتمتع بسليقة الأديب ذي الأسلوب الساحر
الأنحاذ . وسحر بيانه كفيل بأن يجلب له الغفران على
زلاته . ولا يجد القارئ متعة في قراءة أروع مؤلفاته
فحسب ، بل يجد لذة في استعادة قراءتها . كما أن نبل
الكلمات التي سنسردها فيما يلي ، خير شفيح للتغاضي
عن أخطائه وأطوار طيشه : « إنني أمقت كل مدح
يتلمس العذر لإعجابه بمنطقه . إنني أمقت كل مختال
يدير دفة الحديث حول نفسه ، ويحلل للسامعين
شخصيته بدلا من الاعتراف بأخطائه . إنني أمقت ذلك
الضعيف الذي يلقي تبعية ضرر ضعفه على الآخرين
ولا يعترف بأنه هو مصدر ذلك الضرر » .

إن ما يضيف على بنيامين كونستان صبغة العظمة
ويرفعه في أعيننا هو قضاؤه سني الصبا وأطوار الشباب
دون عقاب يكبح جماحها . وليس الخطأ من عنده ، بل
يقع التقصير على أولئك الذين كان من واجهم السهر
على تربيته . ومع ذلك فهو لا ينحو باللائمة على أبيه
ولا على مدرسيه رغم أنهم جميعاً أفرغوا في قلبه الشك
والجحود بالإيمان في سن يكون فيها الشباب عادة مفعم
القلب بالتفاؤل وقوة الإيمان . لهذا لا يجب علينا أن
نرى فيه بعين الدهشة ، تلك الطبيعة المعقدة وميله إلى
التهور أكثر من التوعدة ، وإلى التردد أكثر من الثبات ،
وإلى الاندفاع أكثر من الحزم !

ويرى بعض النقاد في بنيامين الرجل الجاف الذي
لا يعرف الرحمة ، ولكنه في الواقع ، كان يخفي وراء
ذلك قلباً رؤوفاً مليئاً بالطفية . وهو يكره في الرجال
تظاهرهم بأحاسيسهم وتأثرهم وحدهم على صاحب
المصيبة لأن غرضهم في نظره ، لا مشاطرته أحزانه
وأتراحه ، بل لإلباس فداحة الأمر ثوب التفاهة . ويقول
في مذكراته : « إنني من أولئك الذين يحترمون آلام
الغير ، وأدعو الله أن يحفظني من إطفاء لهيبها في قلوبهم
بعبارات المواساة التقليدية ، لأنها في نظري تدنيس
لتلك الآلام . ولا يثيرني شيء أكثر من رضا المكوم
عنها » .

ونجده في اعترافاته رجلاً متساعجاً ، يميل إلى الصلح
والمصالحة ، ولولا رجاحة عقله لظنناه يؤمن بالقضاء
والقدر وما كتب على الجبين ، وهو يقدر ضعف
الإنسان ، لذلك فهو يترفق به ويحلم عليه . ويقول في
هذا : « لا يوجد الرجل الكامل ولا يمكن أن يكون
الإنسان صريحاً كل الصراحة ولا خيئاً كل الخبث » .
ويؤثر عن مونتني (Montaigne) قوله : « إن
الإنسان متباين الصفات ومتلون الأخلاق » . وإذا كانت
هذه الصفة لا يمكن خلعها على كل إنسان فانها تنطبق
تماماً على بنيامين كونستان ، ذلك المخلوق الهوائي
المزاج ، الرقيق العاطفة الذي تسيره الأهواء كيف
شاءت ، لا يعرف ماذا يريد ، ولا يدري ماذا يفيد ،
كأنه لعبة في أيدي الظروف ، يدس نفسه في مآزق
ولا يستطيع الخروج منها حتى يخيل لناقديه أنهم أمام
رجل زئبقى ، يفلت من بين الأصابع ، أو رجل غامض
لا يمكن استشفاف أفكاره ونواياه ، أو استكشاف
اعوجاجه وانحرافاته !

وكتب عن نفسه في ذات يوم يقول : « لقد هدمتني
الحياة وجوها الذي يخنق كل موهبة . . لا أدري كيف
أصف سرورى لوجودى وحيداً . . . إن العزلة هي
دوائى الوحيد » .

١٧٤٢ ، فقد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد وضعه بأسبوعين .

قضى الصبي شبابه دون أن يشعر بأى عطف أو حنو ، كما سبق أن قلنا . ولم يستطع أبوه أن يسهر على تربيته أو يسدى إليه النصائح لكثرة تنقلاته وما اتصف به من خجل مشوب بكبرياء ، وسباحة ممزوجة بخشونة فضلا عن عدم وجود تجاوب نفسى بينه وبين ابنه .

ترعرع الشاب بين أيدي عدد من المدرسين والمربين غربيي الأطوار والأحوال : كان مربيه الألماني يضربه ويركله ثم يحنو عليه ، وكان مدرسه الفرنسى لا يعتقد فى الأديان ويميل إلى الفسوق ، وكان أستاذه البلجيكي موسيقاراً ضعيف العزيمة يترك تلميذه ياتهم المؤلفات المفسدة للأخلاق . وهناك مدرس فرنسى آخر هجر الحاماة للتدريس وحكم عليه بالنفى ، كان يرغم الشاب على نقل مسودات مؤلفاته التاريخية التافهة ، وراهب فرنسى ترك التعبد ، مثقف ومجامل إلا أنه كان خائر الإرادة انتهى به الأمر إلى الانتحار من أجل حب فتاة .

هكذا تناولت تربيته عدة أيدي متنافرة متناقضة إلى أن رأى والده إلحاقه بجامعة أكسفورد بالانجلترا . ولكن تبين له أن الجامعة لا تقبل إلا من بلغ العشرين عاماً بينما ابنه كان لا يزال فى الثالثة عشرة . عاد به أبوه إلى سويسرا حيث كلف به أحد المدرسين لتثقيفه ، ثم ألحقه بجامعة ارلنجن (Erlangen) فى سنة ١٧٨٢ . أظهر الفتى ذكاء ومثابرة فى تحصيل العلم ولكنه كان على جانب كبير من « الشقاوة » الأمر الذى جعله يترك ألمانيا ويلحق بأبيه الذى أدخله جامعة اديمبورج لاستكمال دراسته ، وكان عمره ستة عشر عاماً .

أقام الفتى عند أستاذ فى الطب يؤجر غرفة فى بيته لبعض الطلبة . ونشأت بين كونستان وبين زملائه صداقة أدت إلى قيام محاورات ومناقشات وتحقيقات

ولعله كتب هذا وهو يفكر فيما قاله بسكال (Pascal) بأن المصائب تنصب على رأس الإنسان ، لأنه لا يعرف كيف يستجم فى غرفة . ولو أن كونستان التزم هذا العلاج لكفانا مؤونة البحث عن دراسة سكناته وحركاته لفهمه .

حياته وآثاره

كان هذا الكاتب ، بملاحه النبيلة ، ووجهه المعبر ، وشعره الأحمر المتجدد ، وعينه الصغيرتين ، وقامته الطويلة المنحنية ، وكتفيه الضيقتين ، وساقيه الرفيعتين ، يخفى فى ثيابه أكثر من رجل عظيم ولكنه لم يكن واحداً منهم ؛ وعاش أكثر من حياة ولكن لم يستفد بوحدة منها . لقد سار وراء الحب دون أن يصل إليه ، وحاول الاعتقاد بأنه يعيش ولكن إله الحب كان لا يثق فى تصرفاته ، فأصم أذنيه لكى لا يستمع إلى نداءاته الوهانة . ويرجع ذلك إلى ميله لجلب العراقيل لنفسه ، والوصول إلى غايته عن طريق الأشواك ، والتصرف دون النظر فى العواقب أو الشعور بالمسئولية فى أموره وأحواله ، حتى ليلبدو كأنه شخصية « فودفيل » . فغامراته تنتهى عادة بمبارزة أو بانتحار غير موفق ، بل إنك لا تعرف أكان صريحاً فى شعوره أم مخاتلاً ، صادقاً أم كاذباً . ومن أقواله عن نفسه : « إن خير صفة خلعتها على السماء هى أنى جعلت من نفسى مادة للسخرية ! » وكان يجدر به أن يضيف بأنه يجد لذة فى جعل الآخرين مادة لسخريته .

ولد فى لوزان يوم ٢٥ من أكتوبر سنة ١٧٦٧ من أسرة فرنسية بروتستنتية الأصل ، استقرت فى هذه المدينة منذ أوائل القرن السابع عشر . كان والده جوست كونستان دى ريبيك (Juste Constant de Rebecque) من مواليد سنة ١٧٢٦ يعمل ضابطاً برتبة يوزباشى فى فرقة سويسرية تابعة لهولندا . أما أمه هنرييت دى شانديو (Henriette de Chandieu) ، المولودة فى عام

عن الفن والأدب والفلسفة . ولكنه تعرف في هذه الأثناء ، للأسف ، بموسيقار إيطالي تعلم منه لعب الميسر أكثر من فن الموسيقى . وتعلق بهذا الداء إلى آخر يوم في حياته .

وبعد إقامة سنة ونصف في اسكوتلندا ، توجه إلى باريس في مارس سنة ١٧٨٥ بناء على رغبة أبيه ، وكان يبيت في دار الكاتب جان باتست سوار (Jean-Baptiste Suard) ويتلاقى مع زواره الأدباء . ووكّل به الميسو بومييه وهو رجل تافه محتال ، فكان يطوف به على المواخير ويبيوت الدعارة ، وعلم والده بالحياة التي يعيشها ابنه فأمره بالذهاب إلى بروكسل حيث نبض قلبه بأول حب .

* * *

هام بنيامين كونستان بمدام جوهانو (Mme Johannot) البالغة من العمر ثلاثين عاماً، وهي سويسرية ساحرة الجلال على قسط وافر من الذكاء ، متزوجة من رجل أعمال عين بعد الثورة الفرنسية نائباً في الجمعية الثورية . كان هذا الحب يقوم على الفضيلة ولم يدم إلا دوام سخابة الصيف .

تلقى بنيامين أمراً من أبيه يحتم عليه العودة إلى سويسرا . فأقام في مدينة لوزان وأكّـب على الدراسة وبدأ يكتب « تاريخ الوثنية » متأثراً بأفكار الفيلسوف الفرنسي هلفيسوس (Helvétius) صاحب كتاب « الروح » .

دخل قلب الفتى حب جديد في شخص مدام هاريت تريفور (Mme Harriet Trévor) وهي سيدة انجليزية في الخامسة والثلاثين من عمرها ، افرقت جسدياً عن زوجها ، سفير إنجلترا في تورينو بإيطاليا . كانت لا تزال تتمتع بحسن نادر وجمال أخاذ ، وكان لها أكثر من معجب . انضم بنيامين إلى جماعة المعجبين بهذه السيدة وأرسل إليها كتاباً بث فيه غرامه وشرح لها

النيران المتأججة في فؤاده من أجلها ، فلم تقبل إلا صداقته بينما كان يطمع فيما هو أكثر من الصداقة ، فذهب إليها وارتمى تحت قدميها في تمثيلية عجيبة ، ثم راح يضرب رأسه في الحائط ، مما جعل مدام تريفور في وضع محرج دفعها إلى تهديته ونصحه، لكنه انصرف مهدداً بالانتحار . لم ينفذ تهديده هذا ، بطبيعة الحال ، كما لا يخفى على القارئ ، وراح يتردد عليها مكتفياً بالصداقة .

ولقد ذكرها في كتيبه المسمى « الكراسية الحمراء » (Le Cahier Rouge) الذي حرره سنة ١٨١١ وقص فيه الحوادث التي مرت به في العشرين سنة الأولى من عمره ، ويقول عن هذه السيدة : « كانت تستقبلني في بيتها ونمكث منفردين فيه حتى الثالثة صباحاً دون أن يحدث بيننا أى شيء ، فقد كنت خجولاً للغاية رغم غرامى الشديد بها . ولم أكن أعلم وقتئذ أنه كان يجب على أن آخذ ثمرة الحب غلاباً لا استجداء . كنت أستجدى ، في الواقع ، ولا أنال شيئاً اطلاقاً . كانت مدام تريفور تنظر إلى كعشيق من طراز فريد . ولما كانت النساء عادة يحببن كل ما يشبع غرورهن ، فلم تستنكر تصرفاتى وتعودت عليها » .

لم تدم هذه الصداقة وانتهت عند عودة بنيامين إلى باريس بأمر والده .

مدام شارير وكونستان

تعرف بنيامين أثناء وجوده في العاصمة الفرنسية ، بسيدة تتمتع بقدر وافر من الثقافة والذكاء أثرت في مصيره تأثيراً ملموساً، هي مدام دي شارير (Mme de Charrière) الهولندية الأصل البالغة من العمر سبعة وأربعين عاماً ، بينما لم يكن فتاناً قد ناهز العشرين . كانت لا تزال تحتفظ بقسط كبير من الجمال والدلال . تزوجت هذه السيدة بعد الثلاثين من عمرها برجل سويسرى له أملاك شاسعة ، رقيق الطباع لكنه فاتر

الشعور ، الأمر الذى جعلها تهرب من الحياة الزوجية إلى الإنشاء والتحرير . وعندما جاءت إلى باريس لطبع إحدى قصصها ، تقابلت مع بنيامين .

ويحق لسانت بوف (Sainte-Beuve) أن يقول بأن هذه السيدة اللامعة ساهمت أكثر من أى إنسان آخر على شحذ قريحة كونستان . ويجدر بنا — وإن بدا هذا غريباً — الاعتراف بأن هذه القريحة كانت مزدانة أصلاً بعدة معلومات ومعارف متنوعة قبل أن يعرف هذه السيدة . فرغم حياته المختلة ومجونه وسهره على موائد الميسر ، استطاع تعلم اليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية والإيطالية ، وأن ينشر مقالات ذات شأن ، وأن يقرأ عدداً ضخماً من كتب الأدب والفلسفة والتاريخ .

وخلال الأعوام الثمانية التى قضاهها مع مدام دى شارير ، كان إما يرأسها أو يزورها فى ضيعتها بمدينة كولومبييه (Colombier) . ويذكر ذلك فى كتابه « الكراسى الحمراء » حيث يقول : « كم من أيام وليال قضيناها فى المسامرة ! وكم كانت مدام دى شارير قاسية فى حكمها على الناس ، وكم كنت أنا ساخراً بطبيعتى ، الأمر الذى جعلنا فى تجاوب تام » .

مل بنيامين مع طول الوقت تلك المسامرات والأحاديث الجافة الجدية المشبعة بالتشاؤم ، الخالية من الفكاهة والمرونة . أما مدام دى شارير ، فقد فهمت صعوبة الاحتفاظ بجانبها ، بمثل هذا الفتى الطموح القلق المتقلب الملىء بالشهوة ، التواق إلى الحرية ، والاستقلال .

وفرت صلة بنيامين بـ مدام شارير عندما تعرف بـ مدام دى ستال (Mme de Staël) ، بيد أن هذا الفتور لم يمنع الصديقة السابقة من الاحتفاظ بالشباب الذى خفف عليها وطأة حياتها الكئيبة ، حتى إنها كتبت فى سنة ١٨٠٥ ، قبيل وفاتها ، تقول عن صلتها بكونستان : « إن من الخيوط ما يكون رفيعاً ودقيقاً

حتى لا يكاد يرى ، ولكن صلابته تجعله لا ينقطع أبداً » .

وعندما علم بموتها صرح قائلاً : « لقد خسرت صديقة وفية وأصبح العالم فى نظرى خالياً من الناس » . إذا كانت مدام دى شارير أثرت فى عقلية فتاها ، فإنها لم تفلح فى التأثير على أخلاقه وطباعه . فهو لا يزال يصرف وقته فى الميسر ويستدين . وأرادت سيدة عجوز تعرف أسرته أن تزوجه من فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، جميلة ولها إيراد يبلغ تسعين ألف جنيه سنوياً ، قاصدة بذلك إبعاده عن ذلك الداء . ولكن اتضح أن الفتاة مخطوبة . فما كان من والد بنيامين — على أثر فشل هذا الزواج واستمرار ابنه فى لعب القمار ، إلا أن أوفد إليه رسولا ليحضره إليه ، بيد أن الفتى هرب إلى إنجلترا . والعجيب أنه بمجرد وصوله إلى هناك ، اشترى كلبين وقرداً ! ثم راح يطوف المدن البريطانية بحثاً عن أصدقائه وزملائه فى الدراسة . وانتهى به المطاف إلى ادنمبورج .

وأخيراً فكر فى ضرورة العودة إلى والده ، فوصل إليه وكله خوف من عتابه ، ولكنه استقبله دون غضب أو فرح وهو يلعب الورق مع ضباط من أصدقائه ، مبادراً إياه بقوله : « آه ! أنت هنا ! كيف جئت ؟ » فقال : « تارة راكباً جواداً وطوراً عربية » . فرد عليه أبوه قائلاً : « لا شك أنك متعب . اذهب إلى الفراش » . ظل بنيامين ثلاثة أيام فى عزلة تامة ، ثم ذهب لزيارة مدام دى شارير ولييت عمه فى لوزان .

ويجمل بنا القول هنا بأن كونستان كان يكره أسرته ومسقط رأسه لكثرة ما صبه أبوه فى صدره من مساوئ الأرستقراطية السويسرية .

تشریفاتی وزوج

وجد الفتى نفسه فى أوائل سنة ١٧٨٨ محروماً من دفء الحياة العائلية ، مهموماً من تجارب الحب والغرام ،

غادرة تركت معاشرتها له أسوأ الأثر في نفسه ، فأصيب بأزمة تدهورت على أثرها صحته ؛ ولم يكتسب من رجال البلاط إلا العداء والحسد ، فقدم استقالته وترك عمله في عام ١٧٩٤ ليعود إلى سويسرا قريراً العين لبعده عن عالم لم يهضم أخلاقه وتصرفاته .

ولنذكر هنا أنه قبل مغادرته بلاط الأمير بسنة تعرف بشارلوت دي هاردنبرج (Charlotte de Hardenberg) التي سنراه يتزوجها في عام ١٨٠٨ .

وصال يدوم خمسة عشر عاماً

وصل بنيامين في هذه الفترة من حياته إلى منحن هام حيث تعرف بمدام دي ستال التي فرضت سيطرتها عليه بحدة ذكائها وقوة حيويتها . امتازت هذه السيدة بميول تحررية ، وضمن لها قلمها صيتاً مدوياً في الأوساط الأدبية .

تزوجت في عام ١٧٨٦ من البارون دي ستال هولشتاين (Staël-Holstein) سفير السويد في باريس ، ولم تجد نجاحاً في بلاط لويس السادس عشر . ثم رأت من الحكمة أن تترك العاصمة الفرنسية بعد انهيار الملكية ، فليجأت إلى إنجلترا ، ثم إلى سويسرا حيث جمعت حولها في قصرها بمدينة كوبي (Coppet) عدداً من النبلاء الفارين من وجه الثورة الفرنسية . وفي هذا القصر ، تمت مقابلة بنيامين مع مدام دي ستال لأول مرة في ١٩ سبتمبر ١٧٩٤ .

لاحظت عليه علامات الخجل مما بدا عليه من ارتباك في مشيته ، كما كان مدعاة للسخرية والضحك في نظرها ، بقامته الطويلة وبصره الضعيف ، لكنها غيرت رأيها فيه بعد مجالسته ومحادثته ، إذ اكتشفت فيه الحدث اللبق الواسع الاطلاع حتى إنها طلبت منه العودة إلى زيارتها مرة أخرى .

عاد إليها ليظل معها حتى عام ١٨١٠ . وكثيراً ما حاول بنيامين التخلص من مزاج هذه السيدة الحاد

توافقاً إلى إيجاد عمل شريف يشغله عن قلقه ، وينشله من البطالة التي يعيشها ، لذلك نراه يقبل وظيفة تشريفاتي في بلاط أمير دوقية برانسويك (Duché de Brunswick) شارل الثاني السياسي المرن والإداري المحنك ، والأديب النابه . وبالرغم من تقدير بنيامين لهذا الأمير ، كان يمتح حاشيته ولم ينسجم مع الذوق الألماني وأحس بكراهية طبيعية لسكان البلد . ويقول في ذلك : « إن الألمان قوم ثقالي في التفكير وفي المزاج وفي التسلية وفي الملل » . وكانت سخرية بنيامين وتصرفاته موضع استياء من النبلاء والعطاء في البلاط ، فكانوا يعاملونه بحفاء وصلابة ، فكان يهرب من الجو بقراءة اليونانية ودراسة تاريخ ألمانيا وركوب الخيل واللعب على البيانو ومكاتبه مدام دي شارير . بدأت خطاباتها تحمل إليه كل حب وحنان ، ثم راحت تظهر شيئاً فشيئاً العتاب ، إذ نجحت الأقاويل الخبيثة المغرضة في بث بذور الشك في قلب هذه السيدة وإضعاف تلك الصداقة الثقية الطويلة .

هكذا وجد بنيامين نفسه في عزلة ، مكوم الفؤاد ، مكسور الخاطر ، فقرر الزواج في مايو ١٧٨٩ من وللملين دي كرام (Wilhelmine de Cramm) الوصيصة في بلاط شارل الثاني . لم تكن هذه الزوجة جميلة ، بل بالعكس دميعة تحمل أثر الجدرى في وجهها ، محمرة الأجفان ، نحيفة القوام ، عارية من كل ثقافة ، وفقيرة فوق كل هذا . عاش الزوجان فترة ساد فيها التفاهم . ولكن سرعان ما انقلبت وللملين من امرأة وديعة مطيعة إلى خائنة لرباط الزوجية مع أمير روسي . وعلم بنيامين بهذا فتركها ثم طلقها في سنة ١٧٩٥ .

إن هذا الشاب الذي جاء إلى ألمانيا في الواقع ليرتب حياته ويضمن لنفسه مستقبلاً باهراً بما حباه الله من ذكاء ، وسعة اطلاع وقوة قريحة ، والذي استقبل الثورة الفرنسية بحماس ، لم ينجح إلا في الارتباط بامرأة

ولهبتها الآمرة ، ولكن سرعان ما كانت تهيمن عليه فيطيب له المقام بجانبها . كان يشعر بحاجة إلى هذه « المرأة الذكر » ليقوى من عزيمته ويبعد عن نفسه التردد .

وبعد انتهاء عهد الارهاب في فرنسا ، رأت مدام دى ستال العودة إلى باريس ، ظناً منها أن في التفاف المعجبين بها وانتشار صيتها ، سيجعل نجمها يتألق في سماء فرنسا . ولكن سرعان ما خاب أملها ، فعادت أدراجها إلى كوبي في نوفمبر سنة ١٧٩٥ ، أى بعد شهر من تكوين حكومة الإدارة الفرنسية (Directoire) المكونة من خمسة أعضاء والتي ظلت في الحكم أربعة أعوام .

لم يذهب بنيامين إلى سويسرا مع مدام دى ستال لاعتقاده أن النظام الجديد ستكتب له الحياة . وطلب التجنس بالجنسية الفرنسية بصفته منحدرًا من أسرة بروتستانتيية مهاجرة . ثم اشترى ضيعة بمبلغ ٣٠,٠٠٠ فرنك في ضاحية باريس .

وظهر أول كتيب له بعنوان « قوة الحكومة الحاضرة في فرنسا وضرورة الانضمام تحت لوائها » . (De la Force du Gouvernement actuel en France et de la nécessité de s'y rallier) ثم أعقبه بمؤلفين آخرين هما : « رد الفعل السياسى »

(Des réactions politiques)

و« عواقب الارهاب »

(Des effets de la Terreur)

وبعد أن عاد الوفاق بين مدام دى ستال والحكومة الفرنسية ، سمح لها بالعودة إلى فرنسا على ألا تقطن باريس . فأقامت في ضيعة بنيامين وكان في نيّتها أن تجعل منه وزيراً . وقبل أن تهتم بأمره رأت أن تؤدى خدمة جليلة لصديقها القديم تاليران (Talleyrand) حيث استطاعت تعيينه وزيراً للعلاقات الخارجية ، أما كونستان ، فجعلت منه سكرتيرها في مساعيها

ومباحثاتها ودسائسها حتى أتعبته وأنهكته إلى درجة جعلته يكتب إلى عمته لتبحث له عن زوجة . لقد مل خليلته الأدبية المتعبة ومل استعبادها له وعدم الاستقرار الذى يعيش فيه ، وإن كان في قرارة نفسه قد اعتاد على تلك الحياة المضطربة الصاخبة بصالوناتها السياسية ، التى كان يخدم فيها مع الصحفيين الذين كانوا يعتبرونه فرنسياً دخيلاً .

وفي أوائل عام ١٧٩٧ ، أذنت الحكومة لمدام دى ستال في الإقامة بمدينة باريس حيث عادت إلى دسائسها . وهكذا ساعدت باراس (Barras) أحد الأعضاء الخمسة في « الإدارة » ، في التخلص من اثنين من زملائه ومن كثير من أعضاء البرلمان . ثم قامت بعد ذلك تناهض الإجراءات التعسفية التى اتخذها باراس ، وتستنكرها بعنف .

ووصف بنيامين أعمالها هذه بالطيش وعدم الروية فصبت عليه غضبها هو الآخر . ورأى باراس أن يتخلص من ثروة ونقد مدام دى ستال ، فأصدر أمره بطردها من الأراضي الفرنسية .

ظل كونستان في باريس ليحاول أن يثني عزم باراس ويقنعه باصدار العفو عن مدام دى ستال . وفي هذه الأثناء تقابل مع سيدة تدعى جولى تالما (Julie Talma) سبق له التعرف بها على أثر عودته من بلاط شارل الثانى .

ويجدر بنا أن نذكر كلمتين عن هذه السيدة التى نجد شها بينها وبين بطلة قصة كونستان المشهورة .

ولدت سنة ١٧٥٦ ، ورقصت على مسرح الأوبرا وهى فى التاسعة من عمرها . ثم تزوجت سنة ١٧٩٠ بالممثل الكبير تالما الذى لم يك وفياً لها .

كانت جولى تتمتع بحسن نادر وبجمال وثرء وثقافة ، راجحة العقل ، قوية العزيمة ، صادقة الحكم ، لمع صالونها خلال حكومة الإدارة . عشقت بنيامين

ولكنه لم يشعر نحوها إلا بالصدقة والاحترام ، فاستيقنت أنها لن تستطيع استمالة ذلك الرجل الثائر ، فانصرفت عن حبه . وماتت بمرض ذات الرئة بين ذراعى بنيامين فى مايو ١٨٠٥ ، فخلد ذكرها فى صفحات جميلة تحمل عنوان « رسالة عن جولى » (Lettre sur Julie) طبعت سنة ١٨٢٩ .

أنا لندسى وكونستان

رجعت مدام دى ستال إلى فرنسا بفضل مساعى بنيامين ، وفى رأسها أكثر من مشروع ، وأولها إيقاع الجنرال بونابارت فى حبائلها ، وهو يومئذ أكبر رجل فى الجمهورية . وعملت على مقابله عند تاليران فى باريس عام ١٧٩٨ ، وحاولت جاهدة إغراءه بذكائها أكثر من جالها . ولكنها أخفقت تماماً لأن بونابارت كان يمت المرأة التى تشغل بالسياسة . فتوجهت مدام دى ستال مكسورة الخاطر ومهزومة إلى كوبرى وبصحبته بنيامين كاتم سرها ووكيل أعمالها ومشاطرها أحزانها وآلامها .

وعندما عاد بونابارت من مصر وأحدث انقلاب ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ الذى مهد لقيام الامبراطورية ، كانت مدام دى ستال وبنيامين فى باريس : واختلفت نظرتهم لهذا الحدث حيث تشاءم بنيامين بينما رأت هى فيه فجر الحرية . لذلك راحت تؤلم الولايم وتبدي اعجابها بنابوليون وبأعماله ، وهى ترمى من وراء ذلك أن تجعل من بنيامين كونستان عضواً فى المجلس الاستشارى (Tribunat) بمساعدة تاليران . وقد تم لها ما أرادت .

وقبل أن نسير وراء بنيامين فى وظيفته الجديدة وننصدى لآرائه السياسية ، يجمل بنا الكلام عن انا لندسى (Anna Lindsay) التى تعرف بها ، لما لها من شبه كبير ببطله قصته المسماة « أدولف » .

إنها فتاة متوسطة الحال من أصل أيرلندى ، قامت بتربيتها الدوقة فرتيس جيمس (Fritz-James) فى لندن حيث تقيم . واجتذبتها تيار المدنية وقامت بعدة مغامرات غرامية ، ثم استقرت مع شخص يدعى لاموايون (Lamoignon) أنجبت منه ولدين . وذكرها شاتوبريان فى مذكراته قائلاً عنها « إنها سيدة جميلة ساحرة ولكنها ذات مزاج عنيف » .

وعندما أجمعت على الحياة فى باريس سنة ١٧٩٩ ، اتصلت بجولى تالما وترددت على صالونها ، وتقابلت فيه مع بنيامين وتبادلا حباً جنونياً .

كانت « أنا » تطمع فى حياة رتيبة بالزواج من بنيامين ولكنه لم يكن ليفكر فى القران بها ، بل كان همه أن يزيد اسمها فى قائمة عشيقاته . وتراسلا ، واجتمعا ليفترقا على أمل التلاقى مرة أخرى . وتصرف هذا الرجل لا يدهشنا ، فقد عودنا على تصيده النساء اللاتي يشبهن فى أخلاقه وأطواره العجيبة ، ثم تركهن لينسهن فى أحضان غيرهن .

بطل التحرير

لترك مغامرات بنيامين فى الهوى لنقتفى آثاره فى مهمته السياسية . لم يحاول التزلف إلى رجال الحكم ، بل راح ينتقد موقف الحكومة من أعضاء المجلس الاستشارى . فهاجم الحكومة لعدم اعطائها الوقت الكافى لرجال المجلس لدراسة القوانين ، وطالب بحقه وحق زملائه فى فحص التشريعات فحصاً حراً . كان مذهبه السياسى يتركز على الدفاع عن الفرد بما له من حقوق لا تقل عن حقوق الدولة نفسها ، مما أكسبه لقب « بطل التحرير » .

لم يعترف بمبدأ السلطة ولا بمبدأ الأغلبية وإنما بمبدأ الاستقلال الفكرى . ومن المأثور عنه قوله فى أهمية المعارضة : « ما هى حقوق وواجبات المعارضة ؟ إذا كان وجودنا لا فائدة منه ، فليستغنوا عنا . وإذا كانوا

مدينة وايمر (Weimar) بالذات حيث يقيم فيها أناس من ذوى الشهرة العالمية في مجال الفكر والقلم . فقبات عرضه . وهناك في جو من الهدوء المناسب ، استطاع كونستان أن يقوم بتأليف كتابه عن الدين .

السير وفق منهاج مخطط

كان بنيامين يتردد على المكتبات العامة ليطلع على أهم المؤلفات اليونانية في اللاهوت والعلوم ويتصل بكبار المفكرين والمؤرخين والعلماء . وكثيراً ما اجتمع على موائد الطعام بالشاعر الفيلسوف الألماني جوته ويقول عنه : « أنه رجل ذكي عميق التفكير ، له آراء جديدة ، ولكنه أقل الذين عرفتهم بساطة . » وكثيراً ما جالس شيلر وأمضى معه أمسيات في التسامر . وكان اعجابه بهذا الأخير أكثر من اعجابه بجوته .

ظل يتابع أبحاثه طيلة سنة ١٨٠٤ حتى إذا ما ملها ، راح ينتقل ، للترويح عن نفسه في المدن الألمانية ، ولا سيما لاينبرج وفرانكفورت . كما كان ينزح إلى جنيف ولوزان وكوبي ، لكنه كان يفضل فايمار حيث يقول : « في هذه المدينة أجد ما نيشجعني على اتمام مؤلفي الذي اعتبره أهم حدث في حياتي » .

بدأ يشعر بأن صلته وعلاقته بمدام دي ستال لم تأت بالثمرة التي كان يرجوها ، رغم تضحياته ، كما يتضح من يومياته : « منذ أن تركت العزلة ، أصبحت لا أقوم بأى عمل قيم . . . أين السعادة التي كنت أشعر بها في العزلة ! . . . لقد أصبحت لا أجد اللذة التي ضحيت لها بكرامتي ، ولا الكرامة التي ضحيت لها باللذة ! » .

ولما عزمت مدام دي ستال في ديسمبر ١٨٠٤ على الذهاب إلى إيطاليا لتجد الجو الملائم لكتابة روايتها المقبلة ، انتهز بنيامين الفرصة للاستجمام ، ذهب إلى فرنسا . وجد هناك بعض صديقاته ، فأثر الإقامة مدة أطول من التي قدرها لنفسه . وتردد على جوليت

في حاجة إلينا فليعطونا الوسائل الكفيلة بقيامنا بالمهمة التي عينا من أجلها » . ثم أضاف : « إذا حدث ضرر حاسبونا عليه ، وإن خسرننا حرباً أو تأخر عقد السلام ، اتهموا المعارضة . يبقى علينا أن نصبح مسؤولين عن التقلبات الجوية وأن نسير الرياح والعواصف لإغراق الأساطيل وإهلاك الحرث » . وأنهى كلمته بهذه العبارة التي أغضبت بونابارت : « بدون استقلال المجلس الاستشاري لن يكون هناك تناسق في الأعمال ولا حياة للدستور ، بل سيرزح الشعب تحت نير العبودية والصمت ، الصمت الذي سوف تسمعه أوروبا بأسرها » . وفي اليوم التالي ، استهدف بنيامين لهجمات الصحافة وثورة بونابارت الذي صاح متوعداً المعارضة بقوله : « هناك اثنا عشر أو خمسة عشر من ذوى الأفكار المجردة يجدر بنا إلقاؤهم في البحر . فهم بمثابة الجرائم العالقة بي والتي يجب أن أقضى عليها » .

أما بنيامين ، فانه لم يتفاعل عندما رأى بونابارت يقبض شيئاً فشيئاً بيد من حديد ، على كل السلطات معلناً أن « الحكومة الفرنسية تمثل الشعب صاحب السيادة ولا يمكن قيام معارضة ضد السيادة » . ولم يندعش بنيامين عندما رأى نفسه ، في يناير ١٨٠٢ ، معزولاً من المجلس الاستشاري مع عشرين من زملائه الأحرار .

لم يطق البقاء في هذا الجو الخانق وعاد إلى ضيعته في ضواحي باريس مشطاً المهمة ، خائر القوى . لقد أسكنت قعقة السلاح وطلقات المدافع صوت الحكمة والمقل !

وفي هذه الأثناء مات البارون دي ستال ولم يكن في الواقع إلا زوجاً اسمياً . ورأى بنيامين من واجبه أن يتقدم للزواج من أرملة ، ولكنها رفضت عرضه لأنه يفقدها لقب « بارونة » التي تريد التمسك به .

وعندما أبدت تعبها من النفي المستمر ، قال لها بنيامين إنه مستعد لمصاحبته إن هي ذهبت إلى ألمانيا وفي

ديكاميه (Juliette Récamier) التي لم يكن قد هام بها بعد ، وزار أنا لندسى التي ما زالت تبحث عن زوج شرعى ، واتصل بجولى تالما التي أصيبت بداء الصدر وأشرفت على الموت ؛ وتقابل مع شارلوت دى هندنبرج التي كانت تأمل فى أسر قلب بنيامين بعد أن فشلت فى حياتها الزوجية مرتين .

هكذا أمضى بنيامين أجمل الأوقات فى باريس ، ثم توجه إلى كوبي فى يوليو ١٨٠٥ ، وكانت مدام دى ستال قد عادت إليها بعد رحلتها الموفقة ، فوجدها أكثر تفتحاً لدواخل قلبها ، وأكثر فيضاً فى شعورها . وكان المعجبون بها يحفون من حولها ويستمعون بلذة إلى الانطباعات التي تركتها « المدينة الخالدة » فى نفسها . لم يستغ بنيامين هذا المنظر واستاء من هذه الجموع ودخلت الغيرة قلبه على صديقه ، وقامت محاولات لتهدئته وترضيته . وروى آخر الأمر تمضية الشتاء فى جنيف . وعرضت مدام دى ستال أن يقوم بدور تمثيلية لراسين وأخرى لفولتير ، ولكنه لم يحسن دوره ، بينما أظهرت مدام دى ستال مقدرة فائقة على التمثيل .

لم تنسه هذه التسلية مهنته ككاتب حيث يقول : « كم أريد الانتهاء من كتابين أحدهما فى السياسة والآخر فى الدين ، لأترك أثراً خالداً من بعدى » .

وفى سنة ١٨٠٦ ، نشر مقتطفات من كتابه فى السياسة الذى استغرق أربع مجلدات طبعت فيما بين ١٨١٨ و ١٨٢٠ تحت عنوان : دراسات فى السياسة الدستورية

(Cours de Politique Constitutionnelle)

وفى شهر مايو من هذه السنة ، استدعت مدام دى ستال صديقها كونستان إلى أوكسير (Auxerre) حيث كانت تقيم مؤقتاً للإشراف على طبع روايتها الجديدة كورين (Corinne) . وما أن اجتمع العشيقان حتى قام الشقاق بينهما ، ويقول فى ذلك :

« إما أنها مجنونة وإما أنا المجنون ؛ ولا أدرى كيف سينتهى الأمر بيننا » .

واستطاع بالرغم من حياة القلق التي يعيشها ، الانتهاء من تأليف كتابه عن الوثنية الذى ابتدأه منذ عشرين عاماً ، ولكنه لم يطبع إلا فى سنة ١٨٣٣ تحت اسم « الوثنية عند الرومان » .

(Du polythéisme romain)

وفى أوائل عام ١٨٠٧ ، ألف ، فى مدى خمسة عشر يوماً قصته المشهورة « أدولف » التي راح يتلوها على بعض أصدقائه ، ولكنها لم تظهر فى السوق إلا سنة ١٨١٦ ، بعد أن تناولها عدة مرات بالتنقيح . وسوف نحلل هذه القصة فى آخر دراستنا .

بلغ بنيامين كونستان الأربعين من العمر « دون أن يحقق الفخار الذى كان ينشده » على حد تعبيره . وسبق له أن قال عن نفسه قبل ذلك ببضع سنوات « إن ما ينقصنى فى حياتى هو السير وفق منهاج مخطط » . ثم نراه يقول بعد ذلك : « لم أأخذ قراراً حاسماً لثقتى بقصر الحياة الإنسانية » .

إن مثل هذه العقلية ، ومثل هذه الطريقة فى تفهم الأمور والأشياء لا تدهشنا إذا كان بنيامين قد وصل إلى عنفوان القوة والسن دون أن يعثر على الحياة التي طالما تمنّاها ، ليكون محط أنظار معاصريه . إنه بلا أسرة ، ولا زوجة ، ولا أصدقاء ، ولا حب ، ولا سعادة ، ولا نجاح ، ولا أى مشروع مخطط للمستقبل . هذه كانت حياة هذا الرجل الذكى المثقف الذى معه ضعف عزيمته ، من اختراق أبواب الحياة ، وكبله بالسلاسل حتى أنه بدل أن يرتفع صيته ، ظل منزوياً وغير معروف إلى حين .

ونود التنويه هنا بملاحظتين عن بنيامين : الأولى أن علاقته بـ مدام دى ستال لم ترفع من معنويته ، بل كانت مصدر متاعب ومضايقات له . صحيح أن هذه العشيقة المتسلطة كانت تعترف بموهبة صديقها ولكنها

كانت مشغولة عنه بمصلحتها الخاصة ، وكانت ترى فيه العشيقة أكثر من الأديب ، العشيقة الذى يستطيع اشباع رغباتها وملذاتها أو يخفف من حدة الشدائد التى كانت تستهدف لها من جراء تهورها . والملاحظة الثانية ، أن الشهرة التى حظى بها بنيامين فى آخر حياته ، كانت سياسية أكثر منها أدبية . فالصدفة والصدفة وحدها هى التى جعلت منه روائياً . وهذا الروائى لم يسجل التاريخ اسمه إلا بعد وفاته بوقت طويل .

شارلوت وكونستان

ورد اسم شارلوت دى هردنبرج فيما سبق من الكلام . ويجمل بنا هنا أن نذكر طرفاً من جوانب حياتها المتصلة بكونستان .

تنتمى هذه المرأة العاطفية فى شعورها ، الهوائية فى مزاجها ، البسيطة فى تفكيرها ، إلى أسرة ثرية من هانوفر (Hanovre) . كانت على وشك الطلاق من زوجها الأول عندما تعرفت بصاحب هذه الدراسة ، فى برانسويك ، واشتعل قلبها حباً به . ولكن لم تكن لديه الرغبة فى الزواج منها بعد أن مر بتجربته مع ولهمين .

رأت شارلوت ، أمام هذه الصدمة أن تتركه مدة من الزمن ، ولكنها لم تستطع ذلك بدافع عاطفتها الفياضة . وعندما أظهر لها حنانها تمنعت عنه . فغضب . فطلبت منه الصفح ؛ فلم يبد اهتماماً . فأصرت على أن يعتذر ، فتهرب ، فتملكها الغضب بدورها وقررت قطع علاقتها به نهائياً . فاستحلفها أن ترضى بزيارته لها ، فقبلت ولكنه تراجع .

ومرت عشر سنوات ، وكان كونستان فى هذه الآونة قد تعلق بمدام دى ستال . فما كان من شارلوت إلا أن عقدت قرانها الثانى على الفيكونت ألكسندر دى ترتر وهو رجل دنى لا ضمير له .

وتلاقى بنيامين بشارلوت فى باريس فى شتاء عام ١٨٠٤ - ١٨٠٥ وأفرغ كل منهما ما فى قلبه من متاعب ومآسى للآخر واتفقا على الزواج ، ولكن كان عليهما الانتظار ثلاث سنوات : فكونستان كان مقيداً بمدام دى ستال من جهة ، ولم يقبل زوج شارلوت طلاقها من جهة أخرى إلا مقابل مبلغ وفير من المال .

وفى مايو ١٨٠٧ ، التقى العشيقان فى باريس . ويقول كونستان فى مذكراته : « كثيراً ما أذهب إلى مدام دى ترتر وأشعر بسحر جمالها وبطيبتها وحنانها مما يجعلنى أحس بالسعادة بجانبها وأن قرانى بها فيه راحة الحياة .

ولكنه سرعان ما كان ينتقل من التفاؤل إلى التشاؤم ، ومن اليقين إلى الشك ، فيضيف فى مذكراته : « قضيت سهرة مع شارلوت . هل تنطفئ جذوة هذا الحب ويحل محلها السأم ؟ هذا ما أخشاه ! إن سحرها أخاذ فعلاً ولكنها قلقة الشعور ولا تعرف تنويع الحديث » .

ومع كل ، فان كانت مدام دى شارير ، وأنا لندسى ، وجولى تالما ، وحتى مدام دى ستال ، لم يستطعن الاحتفاظ به ، فان شارلوت استطاعت ذلك . صحيح أن كونستان عندما سيصل إلى الخمسين من عمره سيهم بامرأة أخرى . ولكن هذه المغامرة ستبلغ التفاهة حداً يجعل شارلوت لا تعطيها أية أهمية .

ولكن لا نتعجل الحوادث : فشارلوت لا تحمل اسم مدام كونستان بعد . وعندما ستحملة ، ستضطر إلى الانتظار بعض الوقت للإقامة فى عيش واحد . ففى أواخر يونيو ١٨٠٧ ، ذهبت إلى ألمانيا لتصفية موقفها مع ألكسندر دى ترتر . وأرسلت مدام دى ستال رسولا من قبلها إلى كونستان ليخبره بأنها ستنتحر إن لم يعد إليها : هب كونستان يلبي نداءها ، فلما وصل إليها وجدها تضحك وتلهو وسط زوارها ، فغضب وتركها مع بطانتها التى لم يسترح لها ، وذهب إلى لوزان . ألحت

مدام دى ستال فى عودته إليها ولكنه تلكاً فى الاستجابة فذهبت هى إليه . ويقول فى مذكراته : « جاءت إلى وارتحت تحت قدمى وراحت تصرخ بشكل يفتت الأكباد المتحجرة . وعدت معها إلى كوبي ورضيت بالإقامة فيها ستة أسابيع . إن شارلوت تنتظرنى فى أواخر سبتمبر . فما العمل ؟ هل أدوس على مستقبلها وعلى سعادتى ! » .

مرت الأسابيع الستة ومرت الأشهر وكونستان لا يستطيع الفكك من مدام دى ستال .

وأخيراً تقابل مع شارلوت فى باريس سنة ١٨٠٨ وكانت قد تخلصت من رابطة الزوجية وتنتظر تكوين حياتها الجديدة .

لم تكن لدى كونستان الشجاعة الكافية ليفتح مدام دى ستال بمكنون صدره خوفاً من « أظافرها أن تمزق لحمه » حسب قوله .

وأخيراً قرر الزواج من شارلوت فى يونيو ١٨٠٨ على شرط أن يظل هذا القران طى الكتمان بعض الوقت . رضيت شارلوت ، فى بادئ الامر ، عن هذا الشرط . ثم رأت أن زوجها كثير التغيب ، كثير الأسفار إلى كوبي ، فطلبت منه أن يثوب إلى رشده وأن يتصرف تصرف الرجل القوى الحازم .

لم يستطع ذلك إلا فى مايو سنة ١٨٠٩ عندما ضرب ضربته القاضية بتقديم زوجته إلى مدام دى ستال التى رأت نفسها أمام الواقع ، فراحت تكيل له أنواع الهجو والشتم ووصمته بعدم الوفاء والأنانية والجبن . وبعد ذلك أملت عليه شروطها : لا بد من بقاء الزواج سراً إلى إيجاد حل مشرف لموقفها ؛ وخلال البحث عن حل لهذه الورطة ، يجب على بنيامين أن يعيش فى كوبي ؛ أما شارلوت فلتذهب حيثما أرادت .

ولما لم يمكنه الوقوف فى وجه هذه الطلبات ولا الصمود أمام تيار ذلك العتاب ، اعترف كونستان

وزوجته بالهزيمة : فذهبت شارلوت إلى والد زوجها ، وتوجه هو إلى كوبي عند مدام دى ستال .

مناهضة الاستعمار

رأى كونستان ، بعد أن أمضى شهراً وشهوراً فى كوبي ، بين البطالة وحدة المزاج وعقاب الضمير ، أن يسافر إلى ألمانيا مع شارلوت للتعرف على أسرتها . وهناك أقام فى قصر والديها وشعر بالنشاط يدب فى أوصاله ، ولكن إلى حين ، لأن البروتوكول الألمانى المتشدد لم يرقه . وخلال فترة النشاط تلك ، حرر « الكراسى الحمراء » وزار مدينة برانسويك التى أمضى فيها ست سنوات من شبابه ، ثم عاد منها محملاً بالذكريات المحزنة المؤلمة .

بدأ يمل الحياة حتى مع زوجته كما بدأ هذا الملل يجعله يأسف على الأيام التى عاشها فى نزاع مع مدام دى ستال « ذلك البركان المتقد » الذى انطفأ بالنسبة له ، والذي قد يلهب مرة أخرى لأناس آخرين .

وفى هذه الأثناء ، وصلته أنباء هزيمة نابليون فى روسيا ، وهبت على أوروبا ريح الحرية ، وبدأت قلوب الناس تتفتح لآمال جديدة ، وشاطر كونستان الناس حماسهم ورأى أن نهاية الإمبراطور قد قربت ، فنشر فى هانوفر رسالة ضد نابليون تحت عنوان « روح الغزو والسلب »

(De l'esprit de Conquête et de l'Usurpation) إن هذه الرسالة التى تشرف كاتبها ، تعتبر بحق ، ذات قيمة كبيرة حتى فى أيامنا هذه ، ذلك لأن الاستعمار لا يزال يصب سموه فى العالم بواسطة أذنا به . وتستحق هذه الرسالة ، فى الواقع ، دراسة دقيقة وافية ولكن نظراً لضيق المقام ، سنكتطف منها هاتين الفقرتين :

« إن الدفاع عن الوطن شيء ، والاعتداء على أقوام لم وطن يدافعون عنه شيء آخر . إن روح الغزو

أستحقه ، لا كما ينجل إلى أنهم يرفضون هذا المركز
لى .

وأخيراً قرر الفوز بهذا المركز بعد أن انضم إلى
الملكية الدستورية ، نشر عدة كتيبات يوضح موقفه ،
نذكر منها : « تأملات فى النظم » (Réflexions sur
les Institutions) و « التفرقة بين السلطات »
(Distinction des Pouvoirs) و « حرية الصحافة »
(Liberté des Journaux) و « مسؤولية الوزراء »
(Responsabilité des Ministres) .

نالت مؤلفاته التحررية هذه كل تقدير وكان
موضع حفاوة وولائم وحفلات . ويقول فى ذلك وقد
عمه السرور : « لقد انتشر صيتى » .

إن كل شىء أصبح يبتسم فى وجه كونستان
وتفتحت أمامه الأبواب على مصاريحها لمهام جديدة .
ولكن فى هذه اللحظة شعر بحج جارف طارئ لا يناسب
وقاره يدفعه نحو مدام جوليت ريكاميه .

كاتب سياسى لامع

كانت مدام ريكاميه تعتبر أجمل نساء عصرها ،
ترتمى القلوب تحت قدميها ، تتمتع بسحر لا يقاوم
وذكاء وقاد . كانت تعيش فى المنفى مثل صديقتها
مدام دى ستال ، خلال حكم نابوليون . ولما عادت إلى
فرنسا فى يونيو ١٨١٤ ، فتحت صالونها الأدبى لكبار
الشخصيات المشتغلة بالسياسة والأدب والفن والعلم .
ومع أن كونستان كان يعرف هذه السيدة منذ عشرين
عاماً دون أن يشعر نحوها بأكثر من الود والصدقة ،
ومع أنه كان يعرف عنها فتورها الجنسى إزاء عشاقها
— وما أكثرهم — أحس « بالنار تأكل أحشائه كما
لو كان فى سن الثامنة عشرة » كما يقول .

وكتب فى فجر هذا الحب الأسطورى يقول :
« كنت أمضى أمسياتى لدى مدام ريكاميه ، المرأة التى
عشت معها فى سويسرا ، ورأيتها فى أكثر من مناسبة

ثمحاول الخلط بين هاتين الفكرتين . فبعض الحكومات ،
عندما ترسل جيوشها من قطب إلى آخر ، تتكلم عن
الدفاع عن حياضها ، كأن كل مكان تضم فيه النيران
يصبح من أملاكها . . . » .

وقال أيضاً : « إن القوة التى تمكن شعباً من
استعباد الشعوب الأخرى تعتبر فى أيامنا هذه ميزة
لا دوام لها . فالأمة التى تسير على هذا المنهج الاستعماري
تضع نفسها فى موقف أخطر من الموقف الذى تضع فيه
الأقوام الضعيفة نفسها . إن مثل هذه الأمة تصبح محط
الاحتقار والاشمئزاز من أهل الدنيا بأسرها . وأن
الضمير العالمى والأمانى القومية والسخط العام تقف فى
وجهها . وأن هذا الضمير وتلك الأمانى وذلك السخط
تصب ثورة غضبها على رأس تلك الأمة لتدمرها » .
ولانكون مبالغين إذا قلنا بأن هذه الكلمات تنطبق
بالحرف على الأمم الاستعمارية الموجودة الآن . ولو أن
كونستان لم يسطر غير هذه الكلمات لكفلت لذكراه
الجلد فى سجل التاريخ وفى القلوب المحبة للتحرر .

وبعد هزيمة نابوليون فى معركة لاينبريج واضطراره
إلى التنازل عن الإمبراطورية ونفيه فى جزيرة الب
(Elbe) ، عاد كونستان إلى باريس سنة ١٨١٤ وحده ،
تاركاً زوجته فى هانوفر عند أهلها .

وجد الناس الذين أغدق عليهم نابوليون الألقاب
والأموال يحاولون التقرب من الملك الجديد لويس
الثامن عشر . ورغم التقدير الذى لقيه من الصحف التى
امتدحت رسالته ضد الاستعمار ، انتاب كونستان
شعور متناقض جعله يكتب فى مذكراته بتاريخ ٢٩
مايو ١٨١٤ : « لا أعرف شيئاً عن مصرى : فلم تغدق
على رجل عبارات الثناء أكثر مما أغدقت على ، ولم يعان
رجل من الغزلة التامة أكثر مما عانيت » .

ثم أضاف بعد يومين : « أعتقد أن الناس
يكرهونى ، وقد يكون هذا وهماً منى . ولكنى فى
الحقيقة أنا المسئول عن عدم وضعى فى المركز الذى

هذا ونادى بالعفو العام ، وقرب إليه كونستان باعتباره أعظم كاتب سياسى فى عصره .

اتخذت مقابلة نابوليون له صفة الصراحة والود ؛ وكلفه باعداد الدستور . دهش كونستان من هذا التكليف بقدر ما سر منه . ودفعه اعتقاده فى حسن نية نابوليون إلى أن يقوم بما كلف به وينجزه فى بضعة أيام .

رأى الامبراطور أن يكافئه ، فعينه فى مجلس الدولة . وأظهر كونستان من الهمة والكفاءة ما جعله ملتقى الأنظار . ونستطيع القول بأنه كان يعتبر فى ذاك الوقت أكبر شخصية سياسية فى نظام الحكم القائم .

ولكن انهار هذا الصرح بعد مائة يوم على أثر موقعة « واترلو » ونفى نابوليون إلى « سانت هيلانه » . وكتب كونستان فى مذكراته يوم ٢١ يونيو ١٨١٥ ، ليلة تنازل الامبراطور : « يا لهؤلاء الأندال ! إنهم خدموه بحماس عندما داس الحرية بقدميه ، وتخلوا عنه عندما أقامها ! » .

وعاد لويس الثامن عشر والتف حوله النبلاء وطلبوا معاقبة الذين خدموا نابوليون ، وكان المقصود بذلك بنيامين . فما كان من هذا الأخير إلا أن أرسل خطاباً إلى الملك يبرر فيه موقفه ويرهن بأنه ظل متمسكاً بالآراء التى تخدم مصلحة الوطن فى ظل التحرر .

أنقذته هذه الرسالة من ذل المنفى ، حتى إن رئيس الشرطة قال له : « لقد نجحت رسالتك وأقنعت الملك » فرد عليه بكل بساطة : « أعتقد ذلك لأنها أقنعتنى أنا نفسى » .

واتضح له أن الملكيين يحاولون انقاص قدره فى الصالونات ، فصمم على ترك البلاد . ويقول فى مذكراته بتاريخ ٢٤ يوليو ١٨١٥ : « سأترك فرنسا لمدة طويلة ، لأثني منهوك القوى ، قد سئمت الناس ومدام ريكاميه . إن قلبى ورأسى فى حاجة إلى الراحة .

ولم أشعر وقتها بأية جاذبية نحوها ، وإذا نى على حين غرة . أجد نفسى فريسة حب جارف . ولا أدري هل أصابنى مس من الجنون أم أصبحت أحمق ؟ ولكن أملئ أن أخلص من هذا المأزق » .

ثم كتب بعد ذلك بأيام : « إن هذا الشعور ، للأسف ، لا يتركنى وحى الهوى انسابت فى مفاصلى وامتلكت جسمى وعقلى . لقد انتهى عهد العمل والسياسة والأدب . نعم كل شئ انتهى ليبدأ عهد جوليت بالسيطرة على حياتى » .

كاد هذا الحب ينطفئ فى غده لولا نصيحة السيدة جوليانا كروندرن (Juliana Krüdner) التى كان لها نفوذ على القيصر اسكندر الأول ، وكانت تميل إلى التصوف وعلم النفس . لقد نصحته بالصبر والأمل . ولكنه مل الانتظار والأمل وأصبح منهوك القوى « يقضى الليل راكعاً يصلى أو مستلقياً على البساط » ، غريق وجدانه إلى أن ثاب إلى رشده من شعوزة تلك المرأة ، وعاد إلى العمل والسياسة والأدب .

وفى هذه الأثناء ، رجت أوروبا أنباء عودة نابليون من جزيرة الب إلى فرنسا ، ونشر كونستان فى جريدة « جورنال دى بارى » بتاريخ ١١ مارس ١٨١٥ مقالا ينتقد فيه حكم نابوليون الاستبدادى الذى سبب غزو الوطن . ثم نشر مقالا آخر فى « جورنال دى ديبا » بتاريخ ١٩ مارس ، أعنف من الأول ، مؤكداً أفكاره التحررية ، مشبهاً نابوليون بالطاغيتين تيمور لنك وجنكيز خان .

كان لهذين المقالين دوى كبير ، ولكنهما أغضبا أنصار الملكية وأنصار بوناپارت . ووصمه الأولون بالتهور والآخرين بالوقاحة .

وفى يوم ١٩ مارس المذكور ، ترك لويس الثامن عشر باريس ليدخلها الامبراطور فى اليوم الثانى .

كان من المنتظر أن ينتقم نابوليون من السياسيين الذين خانوه وأن يحكم بالحديد والنار ، ولكنه لم يفعل

سأذهب إلى سويسرا وإلى زوجتي . وهذا كل ما أطلبه من الله » .

ولكنه لم يترك فرنسا إلا بعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ ، قاصداً بروكسل حيث لحقت به زوجته في أوائل ديسمبر . ثم سافرا إلى إنجلترا في ١٥ يناير سنة ١٨١٦ . وفي لندن ، رأت قصة « أدولف » النور بعد تسعة أعوام من تحريرها . واشتراها الناشر منه بسبعين جنيهاً ذهباً .

أعمال النائب الكبير

عندما عاد كونستان إلى باريس في سبتمبر ، وجد نفسه في عزلة تامة : فلا وظيفة ، ولا صديق حتى أصبح غريباً في وطنه .

كانت الانتخابات على الأبواب ، وكانت شعارات المرشحين ومناقشاتهم تافهة إلى درجة جعلت كونستان يفضل البقاء في قصره العاجي . وروح عن نفسه باستئناف كتابة مذكراته عن « المائة يوم » (Mémoire sur les Cent-Jours) التي بدأها في إنجلترا . وظهرت في جزئين بعد انتهائه من تحريرها بأربع سنوات . وفي هذه الأثناء ، علم بمرض مدام دي ستال ، فذهب إليها وظل بجوارها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في سنة ١٨١٧ ، ولم نعرف مدى ألمه على موتها لأن مذكراته تقف عند سنة ١٨١٦ .

عاد بنيامين بعد ذلك إلى أعماله الأدبية . فراسل عدة صحف تحريرية ، وألقى سلسلة من المحاضرات عن الدين ، وبدأ يطبع كتابه المسمى « دروس في السياسة الدستورية » الذي يضم مذهبه وآراءه وأفكاره واقتراحاته فيما يتعلق بالحكومة النيابية والدستور في فرنسا . واعتبر هذا البحث القيم ميثاق المعارضة البرلمانية لعدة سنوات .

كان ضمان حقوق الفرد في نظر بنيامين ، يكن في كلمة « الحرية » وكان واجب الحكومة عنده ،

ضمان هذه الحرية في جميع أشكالها : حرية الفكر ، حرية الصحافة ، حرية الدين ، حرية السياسة ، حرية الاقتصاد أي حرية التصرف في الأموال المكتسبة بالميراث أو من العمل الإنساني . ولكننا نلاحظ فيما يتعلق بهذه العبارة الأخيرة ، تحفظاً يقربه من الاشتراكية إذ يضيف شارحاً : « إن الملكية بصفتها من المرافق الاجتماعية ، تصبح من اختصاص تشريع المجتمع وعلى ذلك يكون للمجتمع حقوق عليها » .

ولدينا ملاحظة أخيرة : فانه وإن بنى مذهبه على مبادئ ثورة ١٧٨٩ وبالتدقيق على وثيقة حقوق الإنسان ، فهو لا يجذ الانتخابات العامة ولا يهتم بالمشاكل الاجتماعية ، وبالتالي لا يثنى على الديمقراطية . هل تنسى كلمته المشهورة التي تبدو ساحرة لأول وهلة ولكن لا يمكن التسليم بها ولا أخذها على علاتها . يقول كونستان : « إن الحرية في رأيي هي انتصار الفردية على السلطة التي تريد أن تحكم بالوسائل الاستبدادية وعلى الجماهير التي تطالب بحق استعباد الأغلبية للأقلية » يتضح لنا بتحليل هذه الفكرة الخلابة في ظاهرها ، أن الفرد يجب أن يكون فوق السيادة وفوق الأمة وفوق الدولة ، أي يجعل البلد بدون حكم وبدون مراقبة ، الأمر الذي لا يتفق مع المنطق السليم .

كان كونستان يأمل بعد تجربته المؤسفة في المجلس الاستشاري ، أن يكون في يوم من الأيام ، المدافع عن الحرية والعدالة على منصة الخطابة . ولقد تهيأت له هذه الفرصة في سنة ١٨١٩ عندما انتخب عضواً في مجلس النواب ، حيث ظل محتفظاً بهذه العضوية إلى يوم وفاته . كان عضواً معارضاً وخصماً عنيداً لحزب اليمين . لم يكن بالخطيب المفوه بيد أنه كان قادراً على حسن العرض والافتناع .

وإذا كان كونستان مكروهاً من اليمين ، فلم يكن محبوباً من أعضاء حزبه ، ونعني بهم الأحرار لتبعيتهم للبورجوازية التي كانت تهتم بالمحافظة على مركزها وعلى

أموالها ومظهرها، وتسخر من أمثال هذا الرجل الصريح الذى لا يعبأ بالتقاليد والعادات المليئة بالخداع والرياء والمخاتلة :

وفى سنة ١٨٢٦ بدأ باصدار الجزء الأول من كتابه المفضل المسمى « الدين فى منبعه وأشكاله وتطوره » (La Religion considérée dans sa source, ses formes et ses développements) الذى يقول عنه البروفسور هنرى بيير (Henri Peyre) « إن كونستان يبدو فيه من كبار الباحثين فى الأدب اليونانى من ذوى الأفكار الفريدة ، متقدماً فى هذا المضمار على كينيه (Quinet) ورينان (Renan) » . ولم يظهر الجزء الخامس والأخير من هذا العمل ، إلا بعد وفاة المؤلف بسنة .

كان كونستان يمثل الاستقلال البرلمانى قلباً وقالباً ، كما كان يمثل المقاومة ضد الاستبداد . كان الشباب الذى يحب فيه حسن البصيرة والنزاهة يحفظ خطبه عن ظهر قلب ويقرأ بشغف واهتمام كتبه ومقالاته . وكانت الرسائل تتدفق عليه من كل أنحاء فرنسا معبرة عن التقدير له والاعجاب به .

وفى سنة ١٨٢٩ أخذ السخط يزداد فى البلاد على أثر الأوامر الملكية التى راح يصدرها شارل العاشر وريث عرش لويس الثامن عشر . وقبل ثورة الشعب فى يوليو ١٨٣٠ ، أعلن كونستان فى البرلمان قائلاً : « إننا لا نهجم الامتيازات الملكية وإنما نطالب الملك فقط بالتنسيق بين السلطات ، وذلك إما بطرد مستشاريه أو بقيام انتخابات جديدة » . كان كونستان يريد ، بمعنى آخر ، إما تغيير الوزراء أو حل مجلس النواب .

واختار الملك حل المجلس ، وجاءت الانتخابات فى صالح المعارضة على غير ما كان يحتسب . وكان على شارل العاشر إما أن يخضع أو أن يتنازل عن العرش : ولكنه اختار حلاً ثالثاً : وهو ضربه بعرض الحائط توجيهات المعارضة ، فقامت الثورة . وكان كونستان

فى الريف متعباً ملازماً الفراش يعود الأطباء حتى إن لافاييت (Lafayette) ، رجل اليسار المعروف ، أرسل إليه يقول : « إن الناس يلعبون هنا دوراً فيه ضياع رؤوسنا ، فقدم رأسك ! » .

لب كونستان نداء الواجب وذهب إلى باريس وكان ضمن المائتين وواحد وعشرين عضواً فى مجلس النواب الذين وقعوا على وثيقة عزل الحكومة وانتخاب لويس فيليب ملكاً . ورأى الجالس الجديد على العرش أن يكافئ بنيامين ، فعينه رئيساً لمجلس الدولة .

ومات المترجم له فى ١٠ ديسمبر ١٨٣٠ ، وسار فى جنازته ، باعتباره بطلاً شعبياً ، أهالى باريس والوزراء وأعضاء البرلمان وقواد الجيش : وحمل الشباب نعشه على أكتافهم تعظيماً لرجل السياسة والأدب الذى استحق تقديرهم واحترامهم :

قصة « أدولف »

عندما ظهر كتاب « أدولف » ، لم يلق أى فهم أو تقدير من معاصريه . وعندما خصه الكاتب المعروف سانت بوف بدراسة فى سنة ١٨٥٢ ، لم يكن معروفاً إلا من رجال الأدب . ولم يحظ بالشهرة إلا بعد وفاة مؤلفه بأربعين عاماً ، متخذاً مكانه بين روائع الأدب الفرنسى . . . وحكم عليه الناقد الكبير البير تيبوديه (Albert Tribaudet) بقوله : « ألف بنيامين كونستان هذا الكتيب الذى سيظل لا بأساً ثوبه القشيب عبر الزمن : إنه قصة حياة فاشلة ، لا قصة فاشلة . والدليل على ذلك هو أن الرواية السيكلوجية فى فرنسا ، لم تزد خلال نصف قرن ، أكثر من السير على منوال هذه القصة الهادئة المترنة الشاملة للأهواء والأحاسيس الإنسانية ذات الرنين المستمر الصدى ، مع تعهدها بالإضافة والتعديل والتبديل والتجديد ليس إلا » . ويقول تيبوديه أيضاً : « إن « أدولف » قصة عبودية راضية ، عبودية

قام بتحليلها رجل وهب نفسه للحرية التي فضلها على كل شيء في حياته .

إن هذه الكلمات الوجيزة التي جاءت على لسان الناقد تعطى فكرة صحيحة عن القصة وعن طبيعة مؤلفها .

تقوم عبقرية كونستان على نجاحه في التخلص من كل ما هو جاف ، وتشويق القارئ بأسلوب سلس خلاب ، رغم خلو القصة من وصف الطبيعة ، أو وضعها في إطار زخرفي ، ورغم خلوها من التفاصيل عن الأبطال والأشخاص الثانويين ، ورغم خلوها من المفاجآت ومن تكرار الحوادث أو وصف الأخلاق أو المكان الذي تجري فيه فصول الرواية . ووقائع القصة تدور في قلوب استطاع بطلها — وهو الكاتب نفسه — أن يدرسها بدقة وأن يقوم بتشرحها ، لا ليدافع عن نفسه وإنما ليتهمها ويعود عليها باللائمة ، ويكشف عن الآلام ، لا للشكوى منها وإنما ليتحملها في سكوت . ويقدم اعترافاته بشجاعة موضحاً أخلاقه بما فيها من رخاوة وضعف ، عارضاً المواقف التي خاضها دون تنميق ودون دموع ، لأنه « كان أكثر أهل جباه رجولة وضراحة » حتى إنه جعل من نفسه على نفسه شاهداً وحكماً .

وإذا كان من السهل على القارئ أن يعرف في أدولف حياة كونستان ، فمن العسير أن يتعرف على الشخصية التي تخفيها اللينور .

بطلة القصة

يعتقد كثير من الناس أن هذه السيدة تنقسم شخصية النساء التي اتصل بهن الكاتب اتصالاً وثيقاً . ودون الوقوع في مثل هذا الاعتقاد المبالغ فيه ، يمكن القول : كما أن الرسام يستعمل مختلف الألوان ليخرج لوحته ، فالأديب يتخذ من بعض الأشخاص الذين قابلهم في حياته صورة يستخرج منها شخصية البطل .

وهذا ما فعله بنيامين كونستان . وفي تقديرنا أن اللينور هي مزيج من أننا لندسي ومدام دي ستال وجولي تالما التي تكلمنا عنهن فيما سبق .

فاللينور ، مثل « أنا لندسي » ، سيدة أجنبية لها طفلان تربطها علاقة غرامية ، يفيض قلبها بالحنان والود ولكنها مستبدة ، حادة الطبع إلى درجة مضايقة معشوقها . ومركز أدولف وخدين اللينور في القصة هو مركز بنيامين وخدين « أنا لندسي » . وأخيراً فإن الظروف التي تحيط بماضي اللينور مستقاة من الظروف التي أحاطت بأنا لندسي .

واللينور هي أيضاً مدام دي ستال في جهادها في الدفاع عن حبها وفي الرغبة الملحة في إطالة مدته وظهورها في مظهر الضحية . وأن بعض مواقف اللينور مع أدولف منقولة من المواقف التراجيدية الغرامية لمدام دي ستال مع بنيامين . وأن ما قاله كونستان في مذكراته سنة ١٨٠٤ عن حياته القلقة المشوبة بالآلام مع عشيقته تلك ، يمكن تطبيقه حرفياً على بطلي الرواية : « كم أود ترك الشكوى ، لا من مصائب الحياة ، بل من ناموس الطبيعة أي من الشيخوخة . إني أريد ، أنا الرجل ، ألا أتحمل انفعالات امرأة ضاع شبابها . لا أريد أن أطلب بالحب بعد اتصال دام عشر سنوات ووصولنا إلى حافة الأربعين من العمر . وكم أعلنت أن الحب هجر قلبي . وهو تصريح لم أرجع فيه إلا لتهدة أزمات الألم والغضب التي كنت أخشاها » .

وأخيراً فإن كونستان الذي كان بجوار جولي تالما ساعة لفظها أنفاسها الأخيرة ، نراه يتذكر ذلك الموقف الرهيب عند وصفه احتضار بطلة روايته .

إن أدولف يظن أنه يحب اللينور ولكن عندما يجد هذه المرأة شغوفة به ، يحاول الابتعاد عنها . إنه صورة طبق الأصل لواضع القصة : فهو المعشوق المتردد أمام الحب ، الذي يظل محبوباً بينما قد خلا قلبه من الغرام . لذلك كتب كونستان في يوم من الأيام هذه الجملة :

« يدهشني أن أرى نفسي كريشة في مهب الريح ، أنا الذي كثيراً ما رغبت في التعلق بأي شيء » .

إن هذه الكلمة يمكن تطبيقها على أدولف . وفي الواقع يشعر هذا البطل بدوره بأنه غير قادر على ترك اللينور أو البقاء بجانبها ؛ غير قادر على الاعتراف بنهاية حبه لها أو اخفاء ذلك عنها ؛ غير قادر على الاحتفاظ بذكرها أو نسيانها .

وهذا الشعور المتناقض لاحظناه في حياة كونستان : فعندما كان يربط مصيره بمصير امرأة ما ، كان هذا الرجل المطاوع لعقله أكثر من قلبه ، لا يكشف إطلاقاً عن مكنون صدره أو عما يجول في فؤاده . كان لا يتوانى في البحث عن طريقة تعيد إليه استقلاله وحرية . بيد أنه كان عند انفصام حبل الصلة ، يتأسف على الملذات السابقة ويشكو من افلاته من ذلك الحب بدون روية . كانت هذه الشكوى وذلك الأسف يجعلانه يشعر فيما بعد ، بالعرفان وبالشفقة نحو التي تركها ، لأنه إذا كان الثبات ينقصه ، فإن الشعور الرقيق متوفر لديه . ويقول في مذكراته : « إن حياتي ، في الواقع ، لا توجد إلا داخل نفسي ، ولا أظهر منها إلا جانبها الخارجي لمن يشاء . أما جانبها الداخلي فمحاط بسور منيع لا يمكن لأحد اجتيازه . وربما تصل الآلام إلى هذا الجانب الداخلي عن طريق الناس ولكنهم لن يستطيعوا الاستيلاء عليه » .

والآن نورد فيما بعد ملخص قصة أدولف مع ذكر مقتطفات منها خلال سردها .

أدولف أو عدم القدرة على الحب

أدولف هو ابن وزير يعمل في معية أمير ألماني . قد أنهى علومه في جامعة جوتنجنج Goettingue في سن الثانية والعشرين . تبدو عليه علامات الخجل والتحفظ كوالده الذي يريد تدريبه على مهنته ليتركه في يوم من الأيام . ويذهب أدولف للترويج عن

نفسه إلى مدينة مجاورة ويتعرف باللينور السيدة البولندية الشابة .

على أثر اضطرابات وقعت في بولندا ، انهار بيت أسرتها ونفى والدها في روسيا ، وذهبت هي مع والدتها إلى فرنسا . وماتت الأم بعد بضع سنوات ، فوجدت اللينور نفسها في عزلة فعاشت بعض مغامرات عاطفية واستجابت لحب الكونت ب . . . وأصبحت خليلته . وعندما تعرفت بأدولف ، كان قد قضى على علاقتها بهذا الكونت حوالي عشر سنوات .

وما أن رآها أدولف حتى سحره جلالها ووقارها ، فغازلها باضطراب نظراً لأنه كان غراً غير مجرب . لم يستطع أن يفتح لها قلبه شفاهة ، ففاتها بغرامه كتابة ، منتهزاً فرصة سفر الكونت . ويقول في ذلك : « رأيت اللينور رسالتي ، وهو أمر طبيعي ، ناشئ عن قلب رجل يصغرها بعشر سنوات ، مفعم بأحاسيس لم يعرفها من قبل ، تدعو إلى الصفح عنه أكثر من الغضب عليه . وردت على بحنان وزودتني بالنصائح ومنحتني صداقة خالصة ، ولكنها أخبرتني بأنها لا تستطيع مقابلي قبل عودة الكونت » .

عاش أدولف في قلق وحاول أن يحدد عن شرطها دون جدوى . ورأت هي ، خوفاً من تصرف متهور من جانبها ، أن تلجأ إلى الريف بعض الوقت . وعاد الكونت وأعد وليمة كبيرة دعا إليها أدولف . وعند الذهاب إلى غرفة الطعام ، أعطى أدولف ذراعه إلى اللينور وراح يسر إليها بآلامه وآماله . ولنتركه يتكلم : « إذا لم تسمح لي غداً بمقابلتك في الحادية عشرة ، فسأترك بلدي وأسرق وأبني وأقطع كل روابطي وأنخلي عن واجباتي ، ثم أذهب إلى أية جهة لأتخلص فيها من حياة يلذك جعلها جحيماً . فردت قائلة : « أدولف ! » ثم ترددت ، فقمت بحركة كمن يريد الابتعاد عنها . ولا أدري كيف كانت ملامح وجهي في هذه اللحظة ، ولكن كل ما أعرفه هو أنه لم يسبق لي أن تقلصت

عضلات وجهي بهذا الشكل : ونظرت إلى اللينور فلاحظت على وجهها خوفاً مشوباً بالحنان ، ثم قالت : « سأقابلك غداً ولكنني أستحلفك : . . . » ولم تكمل الجملة لأن المدعوين كانوا في إثربنا . . . » .

ظلت اللينور في بدء الطعام حاملة مهتمة ، ثم راحت رويداً رويداً تريح كابوس الكآبة وتبتسم وتشارك المدعوين الحديث . ولاحظت في نظر حبيبها من معالم السرور والعرفان ما جعلها تعطف عليه . وعند العودة إلى قاعة الجلوس تتم أدولف قائلاً : « ها قد اتضح لك أنك تسيطرين على حياتي كلها ، فإذا فعلت لك حتى تجدي لذة في ليلاي ؟ » .

وعندما قابل اللينور ، أعلمها بأنه لم يأت إليها لانكاره اعترافه بحبها ، أو ليحدثها عن شعوره الذي لا يمحوه الزمن ، وإنما ليرجوها أن تنسى ذكرى لحظة جنون بدر منه ، وأن تقابله كما قابلته أول مرة حتى لا يشعر بوخز الضمير لانفعال كان الأجدر به أن يخفيه في نفسه . ومما قاله لها : « إن حالي لا تخفي عليك ، ولا أخلاقي المتناقضة ولا قلبي البعيد عن ملاذ الدنيا ، المنعزلة وهو وسط الناس ، المتألم من هذه العزلة . إن صداقتك هي سندی الوحيد في الحياة . . . لا آمل في شيء ، ولا أطلب شيئاً حيث لا أريد إلا روثيتك ، ولا بد لي من روثيتك لأعيش » .

تأثرت اللينور من هذا الكلام وانقادت لرغبة أدولف على شرط أن يلتزم جانب الوقار ولا يقابلها إلا ضمن زوارها . وأحترم هذا الشرط بعض الوقت ولكن سرعان ما دبّت الغيرة في قلبه من المخاطين باللينور ، فرأت تهديئة له أن تقابله على انفراد في بعض الأحيان . ويقول أدولف : « هكذا تغيرت شروطها الصارمة بسرعة وسمحت لي بأن أصف لها حبي واعتادت تدريجياً على لغة الغرام ، إلى أن اعترفت لي بأنها تحبني » .

وانتهى الأمر بها إلى الاستسلام له ، فراح يقول في نشوة المنتصر : « هل يستطيع بشر أن يعطينا صورة صادقة لسحرك أيها الحب ؟ ! . . . وهل يستطيع وصفك من ذاق طعمك ؟ » .

إذا كان أدولف قد شعر بارتياح لغزو قلب اللينور ، فإنها كانت بدورها مسرورة بحياتها الجديدة . ولكن ساورها القلق والخوف عندما لاحظت أن أدولف بدأ يتضايق من ملاحقتها له ، ورغبتها في الاستئثار به كله . ففي الواقع إذا كان أدولف يشعر بألم الفراق إن ابتعد عن اللينور ، ولو بضع ساعات ، وينشرح صدره عند ملاقاتها ، فإننا نراه يقول في اضطراب : « أردت أن أجعل من اللينور مجرد عشيقة ولكن تبين لي أنها تريد رباطاً يدمج حياتي في حياتها » . وهذاه تفكيره إلى أن صلته بها ستراخي بطبيعة الظروف . ويقول في ذلك : « إن علاقة اللينور بالكونت ب . . . وتفاوت السن بيننا ، واختلاف مراكزنا ، واضطراري إلى السفر الذي حان مواعده ، إن كل هذه الاعتبارات دفعتني إلى أن أتمتع بها بأكبر قسط مستطاع من السعادة في أقصر وقت ممكن » .

وبدأ الكونت ب . . . يكتشف ما يدور حوله : وبدأ أدولف يخشى على عشيقته ويسدى إليها النصح ، ولكنها قالت له في تشاؤم : « لا تخف على ولا تتألم من أجلي ولنستمع بالأيام وبالساعات . . . فنفسى تحدثني بأنني سأموت بين ذراعيك . . . » .

وإرضاءاً للينور ، طلب أدولف من أبيه مهلة ستة أشهر ليعود إليه . ولكن هذه المهلة ، جلبت للعشيقين حدة المزاج وعصبية في التصرف حتى دب الخلاف وقامت مشادات عنيفة بينهما : فهي تهمة بغشها وأن صلته بها كانت طارئة ، وأنه حرّمها من حنان الكونت وعطفه ، وجعلها في أعين الناس في مركز مشبوه .

مع أنفسهم ويوغر صدورهم عدم الثقة ، ألا يعدوا
بشيء لا يستطيعون انجازه ، أو أن يعزلوا العالم !

ولا نقول هذا دفاعاً عن اللينور ، فهي أيضاً مذبذبة
بل ذنبها أكبر من ذنب معشوقها ، إذ كان يجدر بها ،
قبل استسلامها لهذا الحب الطائش أن تنظر إلى علاقتها
الأولى وإلى سنّها وأولادها . ولو فرضنا أنها نسيت كل
هذه الاعتبارات ، فكان يليق بها أن تتذكر ، أن الحب
له أجنحة ولا يمكننا أن نوجهه حسب رغبتنا وأهوائنا .
إننا نجدها حنونة صامته في بادئ الأمر ، ثم تنقلب
سريعاً إلى ضحية شاكية باكية متظلّمة غاضبة ، ناسية
أنه من العسير الاحتفاظ بأدولف سجيناً لحب انطفأت
جذوته :

وبعد انقضاء نشوة الغرام الأول ، انتابها المخاوف
من ناحية تقدمها في السن . وهذا الشعور بالذات هو
الذي جعلها تتصرف بتهور . . . ومضت فترة الستة
أشهر ، فترك أدولف عشيقته واعدأ إياها بالعودة بعد
شهرين . وبالرغم من تصريحه بأنه تركها على مضض ،
فانه ينتظر بقلق مرور الأيام ليعود إليها أو تعود هي
إليه . ويقول : « قارنت بين حياة الاستقلال والهدوء
وبين حياة الاضطراب التي يملها على هواها ، فكنت
أجد المتعة في الحرية وفي الذهاب والإياب والخروج
والعودة حسبما يروق لي ذلك ! ! » .

ولما لم يف بوعده ، اتخذت اللينور العدة للذهاب
إليه . فنصحها بتأجيل حضورها خوفاً من أن تنتابها
أزمات عصبية جديدة . ولكنها جاءت إليه في تردد
وأشبعته لوماً وعتاباً ، فاستشاط غضباً . ويقول :
« استسلمنا لغضب جنوني استبعدنا خلاله كل ملاطفة
وكل رقة ، وكنا فريسة للكراهية المتبادلة حتى خلنا أننا
عدوان لدودان يريد كل منا تمزيق الآخر ، بينما كنا في
الواقع شخصين بائسين يعرفان نفسيهما حق المعرفة
ولا يستطيع أحدهما أن يغيرنا الحكم على تصرفنا » .

ودارت بخلد أدولف أطوار حياته المشوبة بالقيود ،
وشبابه المضيق في البطالة واستبداد اللينور به ، ولكن
بكاءها استرق قلبه ، فيحاول مواساتها ، فعاد إليها
الهدوء بعض الوقت ، وصرحت له عند تأهبه للسفر
قائلة : « إن الكونت منغني من مقابلتك ولكن لن
أخضع لهذا الأمر الاستبدادي . . . لأنه يستطيع الحياة
بدونى ولا أستطيع الحياة بدونك » .

حاول أدولف أن يشرح لها الموقف وما عسى أن
يلوكة الناس عنها ، فردت عليه بأن ذلك لا يهمها :
فذكرها بابنيها المحتاجين إلى عطفها ، فردت عليه بأنهما
ابنا الكونت ويستغني بهما . ثم انتهى النقاش على الوجه
التالى : « إذا أنا قطعت علاقتى بالكونت ، فهل
سترفض رؤيتى ؟ فرد قائلاً : « لا بالتأكيد ، وكلما
شعرت بتأملك ، كلما امتلأ قلبي ولاء لك . ولكن قدرى
الموقف . . . » . فما كان منها إلا أن ردت قاطعة :
« قدرت كل شيء ! » .

وبعد يومين تقابلا في الدار التي استأجرتها وأطلعتها
على نيتها في ترك الكونت . ولم يستطع ، أمام هذا القرار
الحاسم أن يبدى أية معارضة ، ورجاها أن تنسى كل
ما سببه لها من ألم وأن تثق فيه :

وبدأت المداينة والمداواة بينهما : فاللينور لا تجرؤ
على الإباحة بقلقها ، ولا هو يجرؤ على الشكوى من
المتاعب والمضاعفات التي لم يستطع محاشاتها . ويقول في
ذلك : « إن المداواة تضع في الحب عنصراً غريباً عنه
يغير من طبيعته ويذبله » .

ولنتساءل : هل لا يزال في الواقع يحب اللينور ،
بل هل أحبها في يوم من الأيام ؟ إنه أراد مغازلة امرأة
ولكن دون السماح لها بالسيطرة عليه . وإنه أمر عجيب
فالحب يحتاج ، لاستمراره وتوطيده - مهما شابه
التطلع إلى الحرية - إلى التنازل عن جزء من هذه الحرية
وعلى الناس الذين هم على شاكله أدولف في نزاع دائم

والأول مرة في حياتهما لم يحاولا تصفية نزاعهما . ولما عاد أدولف إلى داره ، وجد أباه على علم بحضور اللينور ، وقد قرر ابعادها عنه . فما كان من أدولف إلا أن شعر بعودة الحب إلى قلبه واستيقظت فيه روح خاية عشيقته ، فراح يهزها في فراشها قائلاً : « لفرحل فوراً ! هل لك في الدنيا شخص آخر يحميك غيري ؟ هل لك صديق خلاني ؟ أليست ذراعى مأواك الوحيد ؟ » وقبل أن تفيق من الدهشة ، وجدت نفسها مع فارسها في عرض الطريق . وبعد أن ضمها إلى صدره ولطفها ، أخبرها بما كان بنويه أبوه . شكرته على رقة شعوره ، ثم تبينت المتناقضات في قصة حبهما ، فقالت له : « إنك مخطئ يا أدولف في حق نفسك . إنك كريم ، كلك ولاء لي لأنني مضطهدة ، وتظن أنك تحبني ، ولكنك في الواقع تعطف على فقط » . ويعترف أدولف للقارئ بشعوره هذا ، بيد أنه لا يعترف به لمحبوته .

وبعد أن وجد مكاناً يأوى إليه ، كتب إلى أبيه يرجوه بالألا يغضب على اللينور لأن هذا التصرف يزيد في نار الحب ولا يفصم عراه . فرد عليه أبوه يطمئنه بأنه لن يشغل باله بمسألة صبيانية كهذه ، ثم واجهه قائلاً : « إنك تضيق أجمل سنى شبابك سدى وهى خسارة لن تعوض » .

اقتنع أدولف في قرارة نفسه بنصيحة أبيه لأن حياته تدور فعلاً بين البطالة والانزواء . ومع كل ، ظل بجانب عشيقته عدة أشهر في عزلة عن الناس في مدينة صغيرة من مقاطعة « بوهيم » . وفي يوم من الأيام أخبرته اللينور بأنها تلقت رسالة من الكونت يعرض عليها التنازل لها عن نصف ثروته مقابل تركها « ذلك الوغد الذى سبب انفصالها » . لم تلتفت اللينور إلى هذا العرض ، ولم يرق أدولف هذا التصرف « لأنه ظن أن الوقت قد حان ليختار مهنة ويدخل حياة الجد والاجتهاد

ويرفع من صيته بين الناس ، وأن يستثمر مواهبه فيما ينفعه » .

حاول أن يشرح لها أن قوانين المجتمع أشد قوة من إرادة الأفراد ، وأنه من العبث أن يستمع الإنسان لنداء قلبه ، لأن العقل ينتصر عادة في النهاية ، وأن عرض الكونت يستحق الاعتبار . وهنا أطلقت اللينور صرخة ، ثم فقدت وعيها وارتمت على الأرض ، فراح يطيب خاطرها ويسحب اقتراحه ويؤكد لها أن حبه لم يتغير ! لقد أراد من الرأى الذى أبداه أن يجعلها حرة الاختيار . ويقول : « وانتشت من كأس حبها الذى ظنت أنى أبادلها اياه ، وأكدت رفضها للكونت ، وأصبحت ملتزماً بها أكثر من ذى قبل » .

وبعد فترة ، علمت اللينور أن أباه الذى صدر العفو عنه ، عاد إلى بولندا ووجد ثروته كما هى وأنه يريد لها بجواره . وأرادت أن تصطحب عشيقها . وبينما هى تفكر مع أدولف في الذهاب إلى والدها ، أتاه نعيه .

رأى أدولف من واجبه أن يصطحبها لتسوية الميراث . ولم يرتح في القصر الذى ورثته محبوته لأنه أصبح يعيش على نفقتها .

وقابل أدولف صديقاً لوالده هو البارون ت . . . السفير في وارسو ، الذى نصحه بالابتعاد عن هذه المرأة التى لن يستطيع أن يتزوجها لكبر سنها ولسمعتها التى لاكتها الأفواه ، ثم أضاف : « تستطيع الزواج من أكبر العائلات . واعلم أن العقبة بينك وبين نجاحك في الحياة هى اللينور » .

حاول أدولف الدفاع عن عشيقته ولكنه كان في قرارة نفسه مقتنعاً بكلام صديق والده الذى رن في أذنيه تماماً ، فراح يسير الساعات الطويلة في مزارع الريف وهو يفكر في حياة رتيبة مع زوجة تفهمه وتقدره ويحبها . ويقول : « لم أكن أهتم إلا باللينور وبنفسى : باللينور التى تستدر عطفى . وبنفسى التى لا تستحق

الاحترام . . . وارتحت للأفكار الجديدة التي طرأت على ذهني ، ولقد رنا على نسيان نفسي لأتطلع إلى حياة أسمى ، حتى شعرت أن روحي تستيقظ من غفوة طويلة منجولة .

لاحظت اللي نور على أدولف أنه يزداد قلقاً ، فعزت ذلك إلى الحياة المملة التي يعيشها بجانبها ، فعمدت ، لتلطيف هذا الجو الخائق ، إلى دعوة الأسر النبيلة القاطنة بجوارها لزيارتها . ولكنه لم يرتج لمجالسة هذه الفئة الثرثرة التي كانت بدورها تحذره وتكرهه . ويقول في ذلك : « من العجب أني كنت ضحية اللي نور بينما كان الناس يبدون الشفقة عليها كما لو كانت ضحيتي . . . لقد أهملت ، من أجل هذه المرأة ، كل مصالحى وملذات الحياة ، ومع ذلك ، كنت أنا المحكوم عليه . »

حاولت اللي نور أن تشعل نار الغيرة في قلب معشوقها بالتفاف الشباب حولها . إنه كبرياء المرأة الجروحة من فتور عشيقها ، فتريد اقناع نفسها بأنها لا تزال محط أنظار المعجبين . طلب أدولف منها الكف عن هذه المهزلة المضحكة . لبت طلبه ولكن السعادة كانت قد طارت من عشمها وأضحت حياتهما مشوبة بالمنازعات والمخاصمات ، وكانت تقول له : « إنك لا تشعر بمدى الألم الذي تسببه لي ، ولكنك ستعرفه بعد أن تواريني التراب . »

وفي هذه الأثناء ، أرسل البارون ت . . كتاباً رقيقاً إلى أدولف يطلب فيه مقابلته ، فذهب إليه ودار الحديث بينهما على كل شيء فيما عدا اللي نور . وشجعه الدبلوماسى على زيارته من وقت لآخر . وفي إحدى المقابلات ، فاتحه البارون قائلاً : « أريد مناديتك بصراحة . ما الذى يرغملك على البقاء في حالة أنت غير راض عنها ؟ لمن تعمل الخير ؟ أظن أن الناس هنا لا يعلمون شيئاً عن صلاتك باللي نور ؟ إنهم على علم بالشقاق وبالحياة المريرة التي تعيشانها . إن ضعفك

يضرك ، وعنفك يضرك ، وتهورك لن يسعد بهذه المرأة التي حولتك إلى رجل بائس . »

تردد أدولف بعض الوقت في العمل بنصيحة السفير ، ولكن اللي نور راحت تعد عليه خطواته وروحاته ، الأمر الذى سود عيشته ، فانفجر معلناً للبارون : « نعم سأقمتع علاقتى بها . سأجد هذه الشجاعة ، ويمكنك من الآن اخبار أبى بعزمى هذا . » بيد أن الشجاعة خائنه ، فكتب إلى السفير خطاباً يطلب منه مهلة . فما كان من هذا الأخير إلا أن أطلع اللي نور على ذلك الخطاب . فحز ذلك في نفسها ومرضت .

وعندما ذهب لعيادتها في غرفتها ، نظرت إليه ولم تعرفه . فكلمها ، فصاحت مرتعدة : « ما هذا الصوت ؟ إنه الصوت الذى أضرنى ! . . » وقرر الطبيب المعالج أن المريضة في حاجة إلى الراحة التامة ، وطلب من أدولف ألا يطيل جلسته . وعندما صرح له بروئتها ، قالت له : « لا أريد أن أسمع منك كلمة جارحة . إنى لا أطلب أى شيء ، ولا أعارض في أى شيء ، ولكنى أرجو هذا الصوت الذى أحبيته كثيراً وتسربت نبراته إلى أعماق قلبي ، ألا يدخله اليوم ليمزقه . » حاول أدولف أن يخفف ما بها ويواسيها ويطمئنها معترفاً لها بذنبه ، معتذراً عنه لوقوعه تحت دوافع ولحظات قاسية خارجة عن إرادته ، وأنه لا بد لها من بدء حياة جديدة . فردت عليه قائلة : « لا تعاتب نفسك ، إنك كنت دائماً طيب القلب نحوى ولكنى أردت المستحيل . إن الحب كان كل شيء في حياتى ولم يكنه بالنسبة لك . »

بدأت اللي نور تضعف وتهزل وأدولف يحضر لها الطبيب إثر الطبيب ، ويطلب لها أنواعاً من العقاقير دون جدوى . ويقول : « وأرادت البكاء ، لكنها لم تجد الدموع ، وأرادت الكلام ، ولكنها فقدت صوتها ، فتركت رأسها يميل في استسلام على ذراعى وانخفض تنفسها وانطفأت . . . وشعرت بأخر رباط لي ينفصم ،

وأصبحت أمام الحقيقة المخيفة التي فرقت بيني وبينها ،
وأصبحت الحرية التي كثيراً ما ندمت عليها ، ثقيلة
على كاهلي . وكم تأقت نفسي إلى ذلك الخضوع الذي
كثيراً ما ثرت من أجله ! » .

وعثر بين مخلفات اللينور على خطاب كانت رجته
احراقه دون قراءته ، فاطلع عليه بدافع الفضول ، فاذا
به عتاب موجه منها إليه . يقول الخطاب في مضمونه :
« لم تعاملني بهذه القسوة يا أدولف ؟ ما هو الجرم الذي
ارتكبته ؟ ألا أني أحبك ولا أستطيع الحياة بدونك ؟
ما هي هذه الشفقة الغريبة التي تمنعك من فصم عرى
رابطة ثقيلة عليك وتشدك إلى مخلوقة بائسة تمزق
أحشاءها ؟ . . . هل يطيب لك موتى يا أدولف ؟ إذن
ليدخل قلبك السرور : ستموت هذه المخلوقة الضعيفة
التي كنت تحبها ولكنك ضربتها بقسوة : ستموت
اللينور التي لم تعد تتحمل رؤيتها لأنها أصبحت عثرة في
طريقك . . ستموت وستعود أنت إلى الناس الذين تريد
الاختلاط بهم بفارغ الصبر وستعرفهم على حقيقتهم :
وربما تضيق في ذات يوم بهذه القلوب الجافة ، فتندم
على ذلك القلب الذي كان في حوزتك ويعيش بحنانك ،
وكان مستعداً لخوض الأخطار لحمايتك ، ولم تعد تكافئه
حتى بنظرة » :

* * *

٨٤٨
٨٤٨
٧٩



قد تسألني أيها القارئ العزيز ، بعد هذا القدر من
القصة : ما الذي كان يستطيع عمله أدولف ليخفف
من آلامه وآلام معشوقته ؟

إن هذا السؤال بالذات ألقاه عدد كبير من القراء
على كاتب القصة بعد طبعها ، فكان جوابه الآتي :
« لم يكن هناك منفذ لموقف أدولف واللينور . وهذا
ما قصده بال فعل . لقد أظهرته مضطرباً قلقاً لأنه كان
يحب اللينور حباً ضعيفاً . ولو أحبها حباً جماً لما تغير
اضطرابه ولا قلقه على كل حال . كان يتعذب من
أجلها لفتور شعوره نحوها . ولو طغى شعوره لتعذب
لأجلها . ولما كان المجمع قاسياً في حكمه ، فلن يتورع
من استنكار حنان أدولف لأنه عار من أية روابط :
وعلى طالب السعادة في الحياة ألا يبتدئها بمثل هذه
الصلة : لأن الإنسان متى سار في هذا الطريق ، فلا
مناص له من تحمل الآلام » .

إنه حكم قاس ولكنه واقعي : ويسرنا أن نختم به
هذه الدراسة التي جعلت القارئ العزيز يقف على حقيقة
رجل غير مستقر ولكنه صريح ، رجل أديب رقيق
بقدر ما هو غزير المادة ، قوى التعبير : ولعلها تدفعك
إلى قراءة روايته إن كنت لا تعرفها ، وإلى إعادة
قراءتها إن كانت في حوزتك : وإني واثق من منحك
الكاتب كل رضاك :